# غـــزة حليب الآلام

12 قصة

بقلم علي أبو ياسين

# غـــزة حليب الآلام

علـــي أبـــو ياســـين

# إهداء

لكل احرار العالم. من آمنوا بعدالة قضيتنا ورفعوا اصواتهم الحرية لفلسطين. اوقفوا الحرب. اصواتكم كان لها الدور الاكبر برفع المقصلة عن رقابنا. اشكركم من القلب.

# غـــــزة حليـــب الآلام

علـــي أبـــو ياســـين

هـذا العمـل مدعـوم مـن مؤسسـة روزا لوكسـمبورغ - مكتـب فلسـطين والاردن بتمويـل مقـدم مـن الـوزارة الفدراليـة الألمانيـة للتعـاون الإقتصـادي والتنميـة.

مـؤسـسـة
روزا لوكسمبورغ
المكتب الإقليمي في
فلسطين والأردن

**جمِيّع الحقوق محفوظة 2026**

لا يجـوز إعـادة إنتـاج أي جـزء مـن هـذا الكتـاب أو تخزينـه فـي اي نظـام أو نقلـه بـأي شـكل مـن الاشـكال او الوسـائل إلكترونيـة أو المِيّكانيكيـة أو عـن طريـق التصويـر أو التسـجيل أو غيـر ذلـك، دون إذن كتابـي مسـبق مـن الناشـر أو المحرريـن أو المساهمِيّن.

الآراءر الـواردة فـي هـذا العمـل هـي مـن مسـؤولية الكاتـب ولا تعكـس بالضـرورة موقـف مؤسسـة روزا لوكسـمبورغ.

الـورق المسـتخدم فـي هـذا الكتـاب يأتـي مـن غابـات تُـدار بشـكل مسـتدام، ومـن مصـادر معـاد تدويرهـا وخاضعـة للرقابـة البيئيـة.

يحضنون أحلامهم ويمضون

من بين ركام الذاكرة

ذكريات وبقايا وطن

# الفهرس


| | |
|---|---|
| مقدمة | 8 |
| كولا | 11 |
| أم بدر | 23 |
| عجائب الدنيا الثماني | 37 |
| أين ذهب أطفال غزة؟ | 49 |
| "زكيم".. مصاصو الدماء وألعاب الجوع | 59 |
| ضحكة طفل بالدنيا | 71 |
| مطاوع يتهاوى | 87 |
| ما بين بسمة ورغيف الخبز، | 99 |
| أرواح مرتبكة | 111 |
| "فريزر" | 123 |
| سعادة | 135 |
| بيوت | 149 |

## مقدمة

للكلمات قدرة على تجاوز حدود الخيال لتصبح حقائق حية تتشكل من الحزن والألم، ومن الفرح والحب، ومن كل ما يضطر القلب البشري تحمُّله.

إنها قدرة الإنسان على وصف الواقع، ذلك العالم الذي يغوص فيه القُرّاء، والذي قد لا يجدون مفرًا منه، أو ربما لا يرغبون في ذلك.

لم يُمنَح جميع الكُتّاب هذه الموهبة—فمنهم من يُرتّب الكلمات، ومنهم من يوقظونها؛ وعلي أبو ياسين ينتمي إلى الفئة الثانية.

يُضفي أسلوبه المميَّز في الكتابة مزيجًا من الألم والحنان في فضاءٍ واحد يجمع الجميع بداخله، شاملًا مَن يعيشون القصة، ومَن يشهدونها من بعيد، ومَن يتفاعل معها بهدوء في تلك الصفحات، حيث لا يتم إقصاء أحد.

شكرًا جزيلًا لعلي أبو ياسين على مشاركته لهذه الحقيقة الإنسانية، وعلى ثقته بنا لحملها ونشرها معه.

أود أن أعرب عن امتناني لكل من ساهم في إنتاج هذا الكتاب. وأخص بالذكر السيدة علا ضراغمة -منسقة المشاريع في مؤسسة روزا لوكسبورغ في فلسطين والأردن- التي لولا دعمها وتعاونها مع علي أبو ياسين في مختلف المراحل لما كان هذا الكتاب بين أيديكم اليوم.

كما نشكر المترجم أرسين أغازريان على ترجمته المتقنة والمتألقة إلى الإنجليزية. شكر خاص أيضًا للكاتبة الإبداعية آردا أغازريان على تحرير النسخة الإنجليزية. ونتقدم بجزيل التقدير لمحمد حسونة وفريقة على إبداعهم الفني في تصميم، ترتيب وطباعة هذا الكتاب القيّم.

**د. كارين أ. غيرستر**
مديرة المكتب الإقليمي لمؤسسة روزا لوكسمبورغ في فلسطين والأردن

## علي أبو ياسين

كاتب ومخرج مسرحي فلسطيني من غزة، بدأ مسيرته الفنية عام 1990، وشارك في تأسيس عدد من الفرق والمشاريع المسرحية التي تعكس قضايا الإنسان الفلسطيني وهمومه. شغل منصب مدير فرقة "البيادر" المسرحية من سنة 1994 حتى عام 2026. حصل على جائزة التضامن عن مجمل كتاباته من نقابة الكتاب النرويجيين سنة 2024، كما تم تكريمه ضمن مهرجان عشتار الدولي لمسرح الشباب في دورته السادسة سنة 2022؛ لدوره في إنجاح "مونولوجات غزة" وعمله مع "عشتار" مخرجاً ومدرباً على مدار عقدين من الزمن. كُرِّم أيضاً ضمن فعاليات مهرجان المسرح المغاربي بتونس سنة 2018، وحصل على جائزة أفضل ممثل عن مونودراما "أبو عرب في خانة اليك" في مهرجان الربيع الدولي بتونس سنة 2005. صدر للكاتب سنة 2025 مسرحية "ابن البحر" عن دار آرفلون، وله مشاركات عديدة في المهرجانات العربية والدولية.

# كولا

حينما عدتُ إلى منزلي في مخيم الشاطئ قادمًا من دير البلح، أتى صديقي إيهاب لزيارتي ليهنئني بسلامة العودة. كان متجهمًا على غير عادته، والحزن مرسوم ليس على وجهه فقط، ولكن على كل جسده بانكماشه وحركاته المحدودة. إيهاب دائم الابتسام، حاولت أن أنتزع منه ابتسامة ورويت له نكتة، ولكن كانت ابتسامته باهتة لا روح فيها. لم أره هكذا من قبل، فقطعت الحديث فجأة وسألته: "ما بك يا إيهاب؟"

أجابني: "عمتي أم العبد الظاهر أخشى عليها أن تكون جُنّت، أنا أحبها كثيرًا، فقد ربتني مثل أمي."

—"خير، ما لها؟"

"رجعت من الجنوب بعدما انتهت الحرب إلى دارها بجوارنا في الصفطاوي، في البداية، كانت تذهب لتقف بجانب ركام محل السوبرماركت الذي كان 'كولا' يعمل به. وبعد أن طال انتظارها بجانب الركام، بدأت تسير في شوارع الحارة، وكلما حاولنا إعادتها إلى منزلها قالت: 'والله كولا موجود هنا، اتركوني، أنا أسمع صوته، أريد أن أحضره ليعود إلى البيت، الآن موعد غدائه وسيكون جائعًا، أريد أن أُغدّيه'.

"كلما أعدناها إلى المنزل، عادت تجري في شوارع الحارة تبحث عن كولا، وتُقسم أنها تسمع صوته وتراه، وتُهددنا بأن نبتعد عنها وندعها وشأنها." ويكمل حديثه: "كانت عمتي هذه أقوى من أعتى الرجال جسديًا ونفسيًا. لم أرها في يوم امرأة كباقي النساء. لم تنكسر أو تضعف طوال حياتها. دائمًا واقفة كالجبل، كانت تحرس بيتها وتحافظ على أبنائها كاللّبوة. لا أحد يستطيع الاقتراب من أبنائها أو بيتها أو حتى الحارة التي نعيش فيها حتى لا يتورط معها في المشاكل. 'امرأة بمليون رجل' كما يقولون. ولكن بعد استشهاد كولا، انهار هذا الجبل وأصبح رمالًا تتقاذفها الرياح. لم تعد عمتي التي أعرفها، وفي الحقيقة لم أعد أنا أو تعد الحارة كسابق عهدها."

"كولا لم يكن ابن عمتي فقط، بل كان ابن الحارة كلها. كل شخص يشعر أن كولا ابنه أو أخوه، وكل أم كانت تشعر أنه ابنها. لم يكن مهندسًا أو طبيبًا، حتى إنه لم يكمل تعليمه؛ خرج من المدرسة وعمره اثنا عشر عامًا ولم يكمل تعليمه. عمل في سوبرماركت بالحارة، وفي البداية كان يوصل الأغراض التي يشتريها الجيران من السوبرماركت إلى بيوتهم. كان الجميع يحب كولا، كان ابن الجميع. طوال اليوم اسمه يتردد في المكان: 'ابعث لكولا،' 'اجعل كولا يُحضر،' 'اجعل كولا يذهب،' 'اذهب وناد لي كولا.' كان بالنسبة لنا أشهر من نجوم السينما. ظل هكذا حتى ترقّى في العمل عند سن سبعة عشر عامًا وأصبح هو من يجلس على الميزان في السوبرماركت الذي كان يعمل به ليزن الأشياء للمشترين، والابتسامة دائمًا لم تفارق شفتيه. حتى عندما استشهد، مات مبتسمًا، وأقسم بالله حينما حملت نعشه كان هناك طوال الطريق رائحة مسك لا مثيل لها في الدنيا تملأ المكان. لم تغب ابتسامة كولا فحسب، بل اختفت ابتسامة كل أهل الحارة، وكأن نور عيوننا قد انطفأ، وجزء من أرواحنا غادرنا."

صمت قليلًا، ثم أخرج إيهاب الجوال من جيبه وقال لي: "انظر ما أجمل صورة كولا." نظرت إلى صورته وكأنه ملاك، وسالت دموع إيهاب وهو ينظر معي إلى الصورة. هذه هي المرة الأولى التي أرى إيهاب يبكي فيها.

وأكمل: "منذ ولادته لم يكن ابن عيشة، بل كان غريب الهيئة، نحيل الجسد، قصير القامة. تخيّل يا عمّاه، لقد مشى على قدميه وهو لم يتجاوز العشرة أشهر، وكان قصيرًا إلى حدٍّ لافت، حتى لُقِّب بـ"كولا" بسبب ذلك. رآه ابن عمي ذات يوم وهو يمشي، فدهش دهشةً كبيرة، وسألني حينها: "ما هذا؟ كيف يمشي وهو بحجم زجاجة كولا؟" ومنذ تلك اللحظة صار يناديه كولا، ولم يلبث الاسم أن شاع، حتى نسي الجميع اسمه الحقيقي، وأصبح يُعرف بكولا لا غير. ثم بعد ذلك أُلصق به لقبٌ آخر لم يدم طويلًا، إذ ظل اسم كولا هو الغالب والمسيطر، أما اللقب الثاني فكان 'ضحية المشروع'.

"وسبب ذلك اللقب هو أنه حينما كان عمر كولا سنة، أرادت وكالة غوث وتشغيل اللاجئين بناء مستوصف لعلاج أهل المنطقة. كان البناء في فصل الشتاء، وأثناء عمل الجرافات في حفر الأرض، وجد أحد السائقين كولا يجلس على عادم الجرافة (الأقزوت) ويتدفأ. انتبه له السائق في آخر لحظة قبل أن يقع تحت عجلاتها. ثم التقطه وأخذه وأعاده إلى أبيه وأوصاه أن ينتبه لابنه؛ لأنه لو لم ينتبه، لأصبح كولا تحت عجلاتها. ولكن في اليوم التالي ذهب السائق ليتفقد محيط الشاحنة قبل أن يسير بها، فقد صار كولا يشكل له هاجسًا، وبالفعل وجد السائق كولا متسللًا ويجلس تحت عجلات الجرافة يلهو بالرمل ومبتسمًا، فعاد غاضبًا إلى والده وأخبره أن ينتبه لابنه حتى لا يكون ضحية المشروع. ومنذ تلك اللحظة أصبح جميع العاملين بالمشروع ينادون كولا باسم 'ضحية المشروع'.

"كان السائقون حينما يكونون قادمين بمواد البناء من أحجار وإسمنت وحديد وغيرها، يقفون بعيدًا عن المشروع، وينزلون إلى طرف الشارع المؤدي إلى مكان بناء المستوصف الكائن أمام منزل كولا، ويسألون: 'أين ضحية المشروع؟' يقصدون كولا، يلتقطونه، ويضعونه على الكرسي بجانب السائق، ثم يتحرك بالشاحنة ويظل شخص يلاعبه حتى تنتهي مهمة السائق بإيصال الحمولة، ثم يسلم 'ضحية المشروع' لأبيه. ونتيجة لذلك، أصبح كولا الذي لم يتجاوز العام يملك ثلاثة ألقاب: اسمه الحقيقي الذي لا يعلمه أحد، والاسم المتعارف عليه 'كولا'، و'ضحية المشروع' الذي لم يستمر طويلًا.

"وعاش كولا منذ ميلاده وهو الأكثر حياة وحضورًا من بين كل أقرانه. لا أحد في المنطقة، وحتى المناطق المجاورة، إلا ويعرف كولا؛ لأنه ببساطة يخدم الجميع، بارّ بوالديه وخاصة أمه التي كان طوال الحرب يلقي بنفسه في فم الموت حتى يأتي لها بالطعام والدقيق وما تحتاجه. كان رجلًا بهيئة طفل. حتى إن الجميع لم يكن يومًا يرى كولا طفلًا، إلا حينما استشهد، علم الجميع أن كولا لا يزال عمره سبعة عشر عامًا، أي لا يزال طفلًا. ولكنه كان صديق الجميع.

"كان يحاول أن يحصل على لقمة العيش في منطقة زيكيم. يومها أخبرني إيهاب كيف كان كولا يساعد الناس ممن يعرفهم بتوصيل ما يحملون من دقيق وكراتين لمكان وسائل النقل، يضعها فوق كتفه ليخفف عنهم، ويسير بها مسافة لا بأس بها حتى يصل أقرب نقطة بها وسائل نقل، سواء من عربات تجرها الحمير أم تكتوك، وطبعًا مجانًا.

"يوم استشهاده، انتظر شاحنات المساعدات حتى تأتي، وحينما شاهدها فرح بعد انتظاره الطويل، وأخذ يقفز ويهلل وينادي على الناس للتقدم وبأن المساعدات وصلت. كان يشيح بيده في الهواء عاليًا، وفي أقل من لحظة ارتخت يده وسقط كولا على قمة التلة نتيجة طلق ناري في الرأس من قناص إسرائيلي. تكور كولا يصرخ كالجنين أعلى التلة، وكانت عيناه تنظر إلى البحر الذي أحبه أكثر شيء في غزة، وكان يمضي كل يوم جمعة، يوم إجازته، على البحر، ينظر إلى البحر ويشكو له همومه ويحكي له أسراره. كان يظل جالسًا على شاطئ البحر بالساعات يبوح للبحر بكل ما في قلبه. كان ينظر إلى البحر وينطق له بكلماته الأخيرة: 'الطلقة في الرأس تؤلم،' 'أنا أموت.' وبعدها سُمي هذا اليوم 'يوم القنص' من كثرة الشباب الذين قُنصوا بالعشرات في الرأس ومن نفس الأعمار التي لم تتجاوز العشرين عامًا."

أكمل إيهاب القصة: "كنت أجلس بالمنزل حينما جاءني اتصال من ابن خالتي بأن كولا أصيب بطلق ناري في الرأس، ونحن الآن نتوجه به إلى مستشفى حمد. ارتديت ملابسي وتوجهت مسرعًا إلى هناك، ووصلت لساحة المستشفى، ولكنني لم أستطع إدراكه حيًا. وجدت كولا قد توفى وتحت رأسه بقعة دم كبيرة. احتضنت ابن أختي الذي كان برفقته وقال لي: 'كانت آخر كلماته: الطلقة في الرأس تؤلم، ويردد: الطلقة في الرأس تؤلم، ونحن نلقنه الشهادة'."

صمت إيهاب والدموع تملأ عينيه: "لم أتألم على شيء وأبكيه طوال حياتي كما تألمت وبكيت على كولا. الجميع يبكونه، حتى شوارع وبيوت الحارة المدمرة، أشعر

أنها حزينة عليه. كان ملاكًا على هيئة بشر.

"من يقنع والدته أنه استشهد؟ المصيبة أنها تراه شاخصًا أمامها. في كل مرة نحاول تهدئتها وإعادتها إلى المنزل، تُقسم بأغلظ الأيمان أنها تسمع صوته وتشاهده شاخصًا أمامها، وتريد أن تأخذه معها للبيت ونحن من يمنعها. ظلت على هذه الحالة ما بين الحزن وغياب العقل والتعقّل، ومحاولة استيعاب ما جرى، والكل يقنعها أن كولا استشهد وأنه الآن عند ربه في مكان أفضل من عالمنا بكثير. أخيرًا قالت: 'مهما قلتم، كولا لم يمت، لا زلت أسمع صوته يناديني: خذيني يا أمي'."

لا أعلم لماذا، وإيهاب يحدثني، تذكرت والد هاملت حينما كان يظهر لهم شبحًا. يبدو أن الأقدار تتشابه بين حب هاملت لوالده وحب أم العبد لكولا، وعودة الملك شبحًا وعودة كولا من الموت. ولكنهم أخذوا يقسمون لها أنه استشهد وسحبوها إلى المقبرة، وأجلسوها بجوار قبر كولا، وأخبروها أنه يرقد هنا مع آلاف الشهداء الذين سقطوا بالحرب. صمتت طويلًا، ثم احتضنت القبر وبكت ابنها حتى جفّت دموعها وغاب صوتها وخارت قواها، ولم تعد تستطيع أن تبكيه أكثر. بكته كما بكى يعقوب يوسف.

"عادت إلى الحارة، وبمجرد دخولها إلى المكان بدأت تسمع صوت كولا. ولكنها أخبرت زوجها وأبناءها أنها تعلم الآن أن كولا شهيد، ولكنها لا زالت تسمعه وتراه. يبدو أنها سوف تجن، ولذلك سوف تعود إلى الجنوب لتعيش في خيمة بعيدًا عن رائحة كولا وآثار أقدامه وأماكن الأزقة التي كان يلهو بها. أما إذا بقيت هنا، فسوف يذهب عقلها." فأجبتها: "يا عمتي، أينما ستذهبين، ستحملين كولا بقلبك وفكرك، ولا أحد منا يستطيع نسيانه." أجابتني وقد أنهكها البكاء والسواد يلف عينيها الغائرتين: "أعلم يا ابني، ولكنني كرهت كل منطقة الشمال التي أخذت مني ابني وسندي وحبيبي."

"ذهبت، وجمعت بعض ملابسها، وعادت إلى أقصى نقطة في الجنوب، وإلى الآن تعيش وحدها في خيمة، أعتقد أنها تنتظر الموت، أو ربما ماتت فعلًا ولكنها لا تزال تتنفس. رحل كولا، ورحلت عمتي، ورحل قلبي معهم، وصمت المكان."

صمت إيهاب والدموع تملأ عينيه، لم أتألم على شيء وأبكيه طوال حياتي كما تألمت وبكيت على كولا. كان الجميع يبكيه، حتى شوارع وبيوت الحارة المدمرة، أشعر أنها حزينة عليه. كان ملاكًا على هيئة بشر، وروحه كانت تتجول في كل زاوية، في كل حجر، في كل باب مغلق، وفي كل بيت مهدّم. كنت أنظر إلى إيهاب، وهو يقبض على جواله، يحدق في صور كولا، ويداه ترتجفان، وكأن الصور تحاول أن تعيده إلى الحياة، وكأنها تقول له: 'لم يمت، ما زال هنا'.

المصيبة الكبرى كانت مع أم العبد، والدته التي ربته بكل قوتها، التي لم تعرف يومًا الخوف أو الانكسار. من يقنعها أن ابنها استشهد؟ كيف يمكن لقلبها أن يتقبل أن هذا الطفل الذي كان يمشي على أصابع قدميه، يضحك، يلعب، ويزرع الفرحة في الحارة كلها، صار مجرد ذكرى تحت التراب؟

جلست في المقبرة بجوارها، أراقب كل حركة، كل تنهيدة، كل لمسة تراب. شعرت بأن الحزن في جسدها أكبر من أن يوصف، وكأن الحارة كلها تجمعت حولها في صمت، كل بيت، كل زاوية، كل ركام كان يشاركها الألم. لكن وسط كل هذا البكاء والعويل، كان في المشهد رجل واحد لم يشارك الآخرين دموعهم، لم يصرخ، ولم ينهار، ولم يضرب وجهه كما يفعل أهل الفقد حين يُفجعون. كان والد كولا، رجلًا نحيل الجسد، كثير الصمت، يجلس على حجر مكسور عند طرف المقبرة، بعيدًا عن الجموع، يراقب التراب وكأنه ينتظر أن يتحرك وينشق ليخرج منه ابنه من جديد. لم يقترب من القبر، لم يلمس التراب، لم يحتضن أحدًا. عيناه ثابتتان، ويداه مطبقتان على ركبتيه كمن يخاف إن فتحهما أن يخرج منهما وجع لا يُحتمل.

عرفتُ هذا الرجل منذ صغري، كان قليل الكلام حتى قبل الحرب، يعمل بصمت، يعود إلى بيته بصمت، كأنه خُلق من الطين نفسه الذي نعيش عليه. لكنه في ذلك اليوم بدا مختلفًا، كأنه ليس بيننا أصلًا، كأنه تمثال من تراب الحارة، لا يتحرك ولا يتنفس إلا بقدر ما يسمح له الوجع. رأيت الناس يلتفتون نحوه بقلق، بعضهم يقول بصوت خافت: 'لماذا لم يبكِ؟ ربما الصدمة جمدته.' وآخر يرد: 'ربما دموعه انتهت قبل أن تنزل.' لكن الحقيقة أن دموعه لم تُخلق بعد، كان يعيش حزنًا لا صوت له.

"بعد دفن كولا، بقي والده جالسًا في نفس المكان حتى غابت الشمس. الكل انصرف، وأم العبد سحبناها من بين الأيدي كي لا تسقط على القبر من التعب، أما هو فلم يتحرك. كلما اقترب أحد منه ليكلمه كان يومئ برأسه فقط، ثم يعود لينظر إلى التراب. كأنه يخاف لو تكلم أن ينهار كل شيء. وفي لحظة غروبٍ حزينة، رفع رأسه إلى السماء وقال بصوتٍ خافتٍ جدًا: 'الله يرحمك يا كولا.' ثم نهض بخطوات بطيئة ومشى نحو البيت.

منذ ذلك اليوم تغيّر تمامًا. لم يعد يخرج إلى الشارع، ولا يجلس مع الجيران، ولا يتكلم عن الحرب أو الشهداء. أصبح يمشي وحده قبل الفجر، يقطع أزقة الحارة التي شهدت خطوات ابنه، يقف أمام الركام الذي كان سوبرماركت كولا، ينظر إليه طويلًا ثم يواصل طريقه. كان بعض الجيران يرونه يتحدث إلى نفسه، يتمتم بكلمات لا تُفهم. قال أحدهم ذات مرة إنه سمعه يقول: 'كان صغيرًا، لكنه حمل الهمّ عني'.

لم يبكِ كولا، لكنه يبكيه بصمته كل يوم. صمته صار أثقل من أي بكاء، وأعمق من أي صراخ. صار مثل ظلّ يطوف في الحارة لا يُرى إلا حين تسكن الأصوات. يجلس أمام بيته عند الغروب، يشعل سيجارة لا تكتمل، يطفئها ثم يشعل غيرها، ينظر إلى الفراغ كأنه يرى ابنه يمر أمامه بابتسامته القديمة، يحمل كيس الخبز ويقول له: 'يا أمي، أريد أن أذهب لأوصل الأغراض للجيران.

تقول الناس: 'الست أم العبد جُنّت من الوجع، أما أبو كولا، فاختار أن يدفن وجعه داخل صدره.' وأنا أقول: الاثنان ماتا، ولكن بطريقة مختلفة. هي ماتت من شدّة الحنين، وهو من ثقل الصمت. صار مثل جدار الحارة، واقف، لا ينهار، لكنه من الداخل يتآكل كل يوم.

أخبرني إيهاب: "كانت هناك فتاة في الحارة، حبيبة كولا. منذ صغرهما، كان قلبها معلقًا به، يعرف كل تفاصيلها الصغيرة، وكانت تعرف كل شيء عنه، عن ضحكته، عن خطواته، عن كل كلمة يرددها بلا وعي. لكن بعد استشهاد كولا، تغير كل شيء فيها، وكأن روحها ضاعت مع ابتسامته. صارت متقلبة المزاج، لا يعرف أحد ما الذي سيأتيها به اليوم، هل ستبكي أم تصرخ؟ هل ستقترب أم تبتعد؟

"كانت أحيانًا تذهب إلى السوبرماركت، تبحث عن كولا كما لو كان سيخرج من خلف الرفوف مباشرة ليقف أمامها. وفي تلك اللحظات، كان كولا يخرج ليكلمها، ويحاول تهدئتها، ولكنها كانت تصرخ عليه بلا توقف، تلومه على كل شيء، تتحدث لمدة عشر دقائق كاملة وكأنها تنفث كل ما في قلبها من حزن وغضب، وكولا لا يرد، فقط يستمع، صامتًا، وكأنه يقول لها: 'أنا هنا، لكن لا أستطيع تغيير ما حدث'. ثم تتركه وتمضي، ورأسها منخفض، عيناها تختبئ خلف ستار من الحزن.

"وفي أحيان أخرى، كانت تأتي إليه بكل حب وحنان، تلمسه بخفة، تحاول أن تمسك يده، وتجلس بجانبه للحظات قصيرة، تتحدث بصوت منخفض وكلمات ناعمة، وكأنها تبحث عن كولا في كل شبر من جسده. لكن تلك اللحظات كانت نادرة، قصيرة، وتمضي بسرعة قبل أن يعود الحزن ليملأ قلبها من جديد."

بعد وفاته، لم يرَ إيهاب وجهها مطلقًا. طوال الوقت، كانت رأسها إلى الأسفل، عيناها تختبئان من العالم، من كل من يحاول أن يتفهمها أو يخفف عنها. كانت تمشي في الحارة كما لو أن الأرض قد ابتلعتها، تتحرك بلا صوت، بلا خطوات واضحة، وكأنها ظل كولا الذي لم يعد موجودًا. وكان إيهاب يراقبها من بعيد،

يشعر بالأسى، يعرف أن كل حزنها لم يخرج بعد، وأن كل دمعة لم تُسقط بعد، وأن كل لحظة صمت كانت تحمل معها صرخة قلبها التي لم يسمعها أحد سوى روح كولا.

لقد صارت الحارة بعد رحيل كولا أقل حياة، وأقل ضحكًا، ولكنها أيضًا صارت مليئة بهذا الغياب الذي لا يرحم، غياب يجعل كل شيء صامتًا، كل رصيف، كل زاوية، كل حجر. أما حبيبة كولا، فقد صارت تمثل هذا الغياب في شكل إنسان، تمشي بين الناس لكنها غير موجودة، تحب بلا قدرة على التعلق، تتذكر بلا قدرة على التوقف، وتبقى رأسها منخفضة دائمًا، كما لو أن فقده أغرقها في البحر الذي كان يحبه كولا، ولم يعد هناك شيء في العالم يمكن أن يرفع رأسها مرة أخرى.

# أم بدر

طوال الحرب وأنا أحاول اقتناص اللقطات الإنسانية المختلفة وأحاول الكتابة عنها. ولكن أحيانًا كنت أشعر بأنني تعبت ولا أريد أن أكتب، أو أن لا معنى للكتابة. فالقتل مستمر بلا توقف وعائلات بأكملها تُشطب من السجل المدني كل ليلة، والدمار لم يتوقف للحظة، ففي كل يوم تُمحى عشرات المنازل عن الأرض. والجوع والمعاناة والقهر والعجز يزيد على مرأى من العالم ولم يتغير شيء.

بِتُّ أشعر بعبثية كل ما قرأته وكل ما كتبته. كل شيء لا معنى له في ظل استمرار تلك المقتلة، وكل الكون لا يستطيع أن يوقف إسرائيل وما تقوم به من مجازر على مرأى من كل العالم على شاشات التلفاز. قرابة عشرة أيام لم أكتب شيئًا. يومها كنت أجلس أمام البيت الذي كنت نازحًا به في دير البلح، وأحاور نفسي: ماذا جرى لي؟ أمعقول في وسط كل هذا الجبل من القصص لا أجد قصة أكتبها؟ أم أنني لا أريد أن أكتب؟

في خضم هذا الصراع الداخلي، جاءني صديق لزيارتي. جلس بجواري على الكرسي، وقال: "جئت لأطمئن عليك بعد أن سمعت بالأخبار عن قصف هذا المنزل المقابل لكم." وأشار بيده إلى الدمار الذي لا زالت آثار الحجارة المتناثرة منه تحيط بنا. ثم أكمل: "يا رجل، اخرج من هذه المنطقة، هذه ثالث مرة يقصفون حولكم، خشية أن تأتي الضربة فيكم المرة القادمة." قلت له: "عُمر الشقي بقي."

ثم سألني عن أحوالي فأخبرته أنني منزعج من توقفي عن الكتابة، أشعر أن رأسي فارغ، لا شيء أكتبه أو يكتبني. فأجابني: "اكتب عن ليلتك بالأمس." فقلت له: "هي ليلة مثل ليالي معظم الناس، قصف ثم موت، لا شيء مثير بها بالنسبة للقارئ. طوال اليوم هذا هو الخبر الأكثر شيوعًا: قصف ثم موت."

فقال لي: "اسمع، إذا أردت أن تكتب قصة لا مثيل لها وتخرجك من حالتك تلك، اذهب لزوجة عمي أم بدر واسمع قصتها، وأتحداك أن سمعتَ بمثيل لها. إنها تسكن قريبة منك بعد أن نزحوا من تل الهوى، وسأخبرها أنك صديقي وتريد أن تكتب قصتها. هي قليلة الكلام جدًا، ولكن سوف أُقنعها بأهمية أن تظل قصة

بـدر حيـة للتاريـخ وللأجيـال القادمـة." قلـت: "كل القصـص تتشـابه يـا صديقـي." فأجابنـي: "ولكـن هـذه القصـة لا مثيـل لهـا. وأتحـداك بـأن تعيـدك للكتابـة." فقلـت لـه: "أراك واثقًـا جـدًا مـن نفسـك. لقـد أثـرت فضولـي فـعلًا. أعطنـي العنـوان."

أخـذت منـه العنـوان وذهبـت إلـى منـزل أم بـدر، أو الحاصـل (المخـزن) الـذي اسـتأجرته هـي وزوجهـا بعـد نزوحهمـا مـن تـل الهـوى. وصلت حسـب الموعد الذي حـدده صديقي لـي وجلسـت علـى الكرسـي، وأخبرتهـا برغبتـي بكتابـة قصتهـا وأتمنـى أن ترويهـا لـي كمـا حدثـت تمامًـا وبـأدق التفاصيـل.

أجابتنـي: "لا أحـب أن أعيـد قصتـي، ولكـن حامـد ابـن أخـي عزيـز علـى قلبـي، وأقنعنـي بأهميـة أن نـروي حكاياتنـا. نعـم نعـم، سـأرويها لك."

وبـدأت تـروي حكايتهـا التـي لـم أسـمع لهـا مثيـل، وهـا أنـا أضعهـا بيـن أيديكـم كمـا سـمعتها.

خـرج بـدر وعمـره خمسـة وعشـرون سـنة مـن منزلـه الكائـن فـي تـل الهـوى قـرب مجلـس الـوزراء باحثًـا عـن الخبـز بعـد أن فـرغ المنـزل مـن أي شـيء يصلـح للأكل، والجـوع ينهـش بطونهـم منـذ أيـام، وشـعر أن مـن واجبـه الآن أن يأتـي بالطعـام لوالديـه، وخاصـة أنـه ابنهمـا الوحيـد. حـاول والـداه منعـه مـن المغـادرة، وخاصـة أن أصـوات القصـف والطلقـات الناريـة لـم تتوقـف، ومنـذ الأمـس لـم يشـاهدا بشـرًا فـي المـكان. أخبرهمـا أنـه لـن يغيـب طـويلًا وبـدأ بطمأنتهمـا وأن لا شـيء يدعـو للقلـق، وهـذه الأصـوات التـي نسـمعها تبـدو أنهـا بعيـدة عنـا. وبالنهايـة لـم يسـتطيعا منعـه وخـرج لا يعـرف أيـن يذهـب. وظـل والـداه ينتظـران الدقائـق والسـاعات التـي تمـر بطيئـة، وأصبـح انتظارهمـا لا يطـاق، والرعـب ملأ قلوبهمـا علـى بـدر الـذي طـال انتظـاره؛ كانـا علـى أحـرّ مـن الجمـر. وبـدأ القلـق يتسـرب إلـى والديـه، وخاصـة أنـه ابنهمـا الوحيـد. مـرت السـاعات متعاقبـة بزمنهـا الطويـل القاتـل تحـت سـماع أصـوات الانفجـارات ودوي الرصـاص الـذي لا يتوقـف.

كاد قلب أم بدر أن ينفطر من شدة قلقها على ابنها الذي خرج منذ ثلاث ساعات ولم يعد إلى الآن. كانت أشبه ببندول الساعة وهي تتحرك يمينًا ويسارًا ولا تنفك عن فرك يديها ببعضهما البعض. فالدنيا حرب، والغياب نذير شؤم، والخروج من المنزل خطر، ولم تكن منذ البداية موافقة على خروجه. ثم صاحت في وجه زوجها: "لم أعد قادرة على الانتظار أكثر من ذلك، سوف أخرج للبحث عن ولدي، لقد هدأ إطلاق النار قليلاً. أنا المخطئة، لو أطعته كان يجب أن أمنعه بالقوة من الخروج."

فأجابها زوجها: "كيف ستخرجين؟ هل جُننتِ؟ ألم تسمعي أصوات الطلقات التي تكاد لا تتوقف؟ يبدو أن هناك اشتباكات عنيفة بالخارج، انتظري حتى تهدأ تمامًا." قالت: "لن أنتظر. أخبرني متى توقف القصف وسماع الطلقات والانفجارات؟ كان لا بد من أن أمنعه حتى ولو بالقوة. أين كان عقلي عندما تركته يذهب؟ انتظرني في المنزل، لم أعد قادرة على تحمل غيابه، يجب أن أخرج. لن أغيب طويلًا، سأبحث في محيط البيت."

التقطها زوجها من يدها وحاول منعها ثم قال لها: "دعيني أنا أخرج أبحث عنه." فقالت: "لا، سأخرج أنا. أنت انتظر هنا في البيت خوفًا من اللصوص. يبدو أن الناس غادرت المنطقة، وهذا مناخ مناسب لسرقة المنازل." أنزلت يده وخرجت من البيت بخطى سريعة تتلفت بكل الاتجاهات في الشوارع الخالية إلا من بعض أصوات الكلاب التي لا تتوقف عن النباح. وكان المكان ينقصه الرعب والخوف حتى تضع الكلاب لمساتها الصوتية لتضيف رعبًا على رعب.

كانت منطقة تل الهوى قد تحولت لمدينة أشباح. وهي التي كانت قبل الحرب تضج بالحياة والحركة بوصفها من أرقى وأجمل مناطق قطاع غزة بمبانيها الحديثة وبجامعاتها ومدارسها والمشافي العديدة والمسارح والمطاعم والمراكز التجارية. كانت كأنها مدينة مستقلة بذاتها، لها جمالها الخاص، والآن صمتت. كانت أصوات الأغاني والضحكات وأصوات الباعة والأطفال لحظة خروجهم من المدارس مهللين فرحين تملأ المكان. تبدلت بأصوات الكلاب والمدافع والصواريخ وطائرات الاستطلاع (الزنانات) والدبابات.

ظلت أم بدر تسير وحيدة في الشوارع تتمنى أن ترى أي شخص لتسأله عن بدر. أيعقل أن لا أحد في المكان؟ هل لم يبق في تل الهوى سوانا؟ ولكنها ظلت تمشي مرة جهة الشمال ومرة جهة الجنوب، لا تسمع سوى صوت نباح الكلاب الآتي من بعيد ولسان حالها يقول: كيف اختفى الناس بهذه السرعة؟ لقد ماتت المدينة. نعم، للمدينة روح، وحينما تخرج الروح تموت المدن، والإنسان هو روح المدينة، فعند مغادرته تموت المدن.

أجابت نفسها: "هذا وقت فلسفتك الفارغة، لا بد لي أن أذهب باتجاه أصوات الكلاب، فلا بد أنها تعوي على شيء ما، بشر أو حيوان، أي شيء أستأنس به، برغم خوفي الدائم من الكلاب، ولكن لا بد لي أن أذهب باتجاه الصوت علني أجد أية حياة في المكان."

أخذت تتقدم بخوف تجاه المكان المحاط بهذا الدمار الشاسع من الأبراج التي كانت تشتهر بها تل الهوى، واكتشفت أن الانفجارات التي كانت تسمعها طوال الوقت لم تكن عبثًا، بل شاهدت آثارها على الأرض التي دُمّرت هي الأخرى. كانت رائحة القتلى تزكم الأنوف، وكأنها فجأة دخلت في فيلم رعب، وتحديدًا بالقرب من جامعة الأقصى.

وفجأة شاهدت من بعيد ثلاث جثث مُلقاة على الأرض والكلاب تنهش بها. ترددت في الاقتراب منها لأن الكلاب كبيرة الحجم، ومن الواضح أنها مفترسة، ولكن بدأ الشك يتسرب إلى قلبها نحو ابنها بدر، وخاصة أن حذاء أحدهم يُشبه إلى حد كبير الحذاء الذي كان يرتديه بدر عند خروجه من المنزل. أخذت تقترب رويدًا رويدًا، وكلما اقتربت اكتشفت أن هذا الشاب المُلقى يرتدي نفس البنطال ونفس القميص. ثم أخذت تركض تجاهه وصرخت بأعلى صوتها، صوت قد يكون أعلى من صوت الصواريخ، وغطى كل منطقة تل الهوى، وحطّم الصمت المرعب المُخيِّم على المكان: "آه يا أُمّاه آه يا أُمّاه!"

تحولت لكائن آخر، إنسان متوحش أكثر من الكلاب المفترسة، حتى إن الكلاب ارتعبت وجفلت لبرهة من شدة الصوت والغضب والحزن والقهر، وأضف ما تشاء من مشاعر مُحمَّلة بهذا الصوت. ركضت بدون وعي تجاه جثة ابنها بدر التي كان أحد الكلاب ينهش في لحمها، وكلبان آخران ينهشان لحم الجثتين الأخريين.
حاولت أن تسحب ابنها بعيدًا ولكن الكلب هاجمها، ونهش يديها وقدمها، كان كلبًا مسعورًا تعوَّد على اللحم البشري. دافعت عن نفسها بكل قوتها وتخلصت منه بقوة، ثم ابتعدت عنه قليلًا وبدأت تبحث في المكان عن أي شيء تدافع به عن نفسها، فوجدت عصا حملتها استعدادًا للمعركة. وفجأة خلعت منديلها بسرعة وتناثر شعرها على وجهها الذي تكسوه أشد ملامح الشراسة والغضب. ثم مزقت المنديل نصفين وربطتهما ببعضهما. ثم خلعت بنطالها من تحت العباءة ومزقته نصفين وربطت البنطال بالمنديل وصنعت منهما حبلًا طويلًا، وعادت لابنها متحدية الكلب مرة أخرى. فهجمت عليهم تصرخ كلبؤة مفترسة، تضربه بالعصا مرة، ومرة يهجم عليها. يبدو أن الكلب ارتعب من هذا الكائن الغريب الذي يصرخ ويزمجر أكثر منه. وظلت تهُشُّ بالعصا عليه مرة ومرة تربط قدم ابنها بالمنديل حتى أحكمت وثاق ابنها وبدأت تسحبه بعيدًا عن الكلاب، التي يبدو أنها اكتفت بالجثتين الأخريين.

ولكن ظل هذا الكلب يلاحق فريسته، ثم هجمت عليه كلبؤة شرسة، فخاف وعاد أدراجه لينضم إلى قطيعه. وظلت أم بدر تجرّ بدرًا حتى ابتعدت به عن الكلاب، وعادت تصرخ: "آه يا أُمّاه..." وارتمت عليه تحتضنه وتقبّله من كل مكان: "قُمْ يا بدر قُمْ يا أُمّاه، حبيبي يا أُمّاه، قُمْ قُمْ، لا نريد أكلًا ولكن اصحُ." ولكن دون مجيب.
كانت أم بدر، وهي تجر ابنها بعيدًا، تشعر بصراع داخلي يمزقها كلما التفتت نحو الجثتين المتروكتين خلفها. شيء ما في داخلها كان يصرخ بأن تجرهما معها، ألا تترك أحدًا نهش الموت ملامحه وحيدًا في ذلك الخراب. شعرت بالخيانة، وكأنها تخذل أمّين أخريين تنتظران أبناءهما، أو ربما تُركتا مثلهما في العراء. كانت تَهُمُّ بالعودة، تتراجع خطوة ثم تتقدم أخرى، يتنازعها الواجب والخوف، القلب والعجز. تقول لنفسها: "لا أستطيع تركهم... ولكنني لا أستطيع ترك بدر أيضًا." وفي النهاية سارت، تتعثر بدموعها، تحمل ثقل ابنها وذنبًا آخر يجرّ روحها خلفها.

ثم عادت تجر ابنها إلى المنزل الذي يبعد قرابة ألف متر. وظلت طوال الطريق تجرّه، والحبل ينخُر في كتفها، ولا تزال لا تصدق ما يحدث. "هل هذا فعلًا ابني بدر؟" تنظر إليه، تعود لتحتضنه، تنادي عليه، تتوسل إليه أن ينهض، ثم تعاود المسير.

شريط حياته مر أمام عينيها بلحظات: يوم مولده، صرخته الأولى، كيف حبا على يديه أول مرة، وخطواته الأولى، وكلمة "ماما." وفرحتها لذهابه أول يوم للروضة، وتخرجه من الجامعة، وحبيبته التي كان يكلمها في السر. نظرت إليه، تتوسله: "انهض يا بدر. أتعلم يا ولدي من سمّاك بدرًا؟" (تصمت) "كلا، لست أنا، لا، لا ولا حتى والدك. إنها الممرضة حينما ولدتك، وألقت نظرها على وجهك، قالت لي: لقد أنجبتِ بدرًا يا سيدتي، سبحان الخالق. حتى إنها دعت كل زميلاتها الممرضات ليشاهدن جمالك، ووقتها قلنا سوف نسميك بدرًا." ومنذ تلك اللحظة التصق الاسم به، قبل أن تتاح لأم بدر أو أبيه فرصة التفكير بغيره. وكلما تذكرت تلك اللحظة، رأت صورة وجهه المستدير، ونور عينيه، والسكينة التي أحاطت به منذ اللحظة الأولى.

تقول أم بدر إنها في ذلك اليوم شعرت بشيء غريب، كأن الألم الذي لم تعشه عند ولادته لم يختفِ، بل اختبأ في مكان ما داخل جسدها، مختبئًا بذكاء، ينتظر اللحظة التي سينفجر فيها دفعة واحدة. وكأن الحياة أخّرت عنها الوجع، لترده إليها مضاعفًا، ليوم لم تتخيله أبدًا. كانت تقنع نفسها أن الله منحها ميلادًا بلا ألم ليرحمها، ولم تدرك إلا الآن أن وجع الولادة الحقيقي لم يكن لحظة مجيئه، بل لحظة رحيله.

كانت تشعر، وهي تحدق في وجهه الذي تجمّد على ملامح تعرفها جيدًا، أن كل ألم لم تشعر به حين أنجبته عاد إليها دفعة واحدة، يجتاح صدرها وبطنها وظهرها، نفس الألم، نفس المكان... وكأنها تلد بدرًا مرة أخرى، لكن هذه المرة تلد غيابه، تلد الفقد ذاته، تلد النهاية. "انهض يا ولدي انهض، أريد أن أزوجك. أريد أن أفرح بأولادك، ولكن إياك أن ينادوني أحدهم بجدتي." ضحكت ضحكة خفيفة، ثم بدأ

صوت يخترق رأسها بأغنية فريد الأطرش: "الحياة حلوة بس نفهمها."
نفضت الصوت بعيدًا، وأجابت نفسها: "ما هذا الجنون الذي برأسي؟ أجرّ ابني مستشهدًا وأغني لفريد؟"

صارت الدماء تسيل من كتفها من آثار الحبل المشدود من ثقل الجثة، ولكنها لم تكن تشعر بشيء. استمرت بالمشي، ولا زالت الشوارع خالية، وكأنها حواء في بداية الخلق، وتجر ابنها هابيل الذي قتله أخوه قابيل... ولكن بدر قتلته إسرائيل. تذكرت بدر حينما كان كل صباح ينهض مبتسمًا مقبلاً جبينها، وتداعبه: "قبّلني من خدي." ويجيبها: "هذه أحلى قُبلة لأغلى أم في الدنيا." عادت أغنية "الحياة حلوة" تقتحم فكرها وتزاحمها في مصيبتها، وطردتها بشدة. وأخذت تنظر إليه وتصرخ: "آه يا أُمّاه...."

اقتربت من منزلها ببضع خطوات، وعادت أغنية "الحياة حلوة بس نفهمها" تسيطر على رأسها. صور بدر المتلاحقة: وهي تضع له شطائر المدرسة، وتشتري له ملابس العيد، ويوم نجاحه في الثانوية العامة، وتوزيعها للحلوى على كل أهل الحي والأقارب. وعادت صورة الكلاب في رأسها وهي تنهش في قدميه. وعادت الأغنية تنخر في رأسها. صرخت بأعلى صوتها: "آه يا أُمّاه!."

كان الخوف يحيط بأم بدر من كل زاوية وهي تجر ابنها، خوف كثيف، كثافة الغبار المتعلق بالهواء، لكنه لم يكن خوفًا واضح المعالم، لم يكن كالخوف الذي تعرفه في الأيام العادية، ذلك الذي يجعلك تنتفض أو تتراجع خطوة للوراء. بل كان خوفًا صامتًا، يشبه ظلاً ثقيلاً يمشي خلفها ويغرس يديه في كتفيها دون أن تراها. كانت تسمع صوت الطائرات الصغيرة، تلك "الكواد كابتر" التي صارت جزءًا من السماء، كأنها عيون معلّقة تراقب كل حركة. كانت تتحرك فوقها كأنها كائنات من معدن، مزودة بأعين لا ترمش، تتبع كل نفَس، كل زفرة، كل ارتعاشة، وتبدو كأنها تحاصرها من الأعلى، تحاصرها من الداخل أيضًا، تذكّرها كل لحظة بأنها مكشوفة، وأن الموت يمكن أن يسقط عليها كما أسقطته على بدر أو كما تسقط شظية من صاروخ لا يُرى.

لم تكن أم بدر تنظر إلى السماء، لم تكن تملك الجرأة أن ترفع رأسها لترى ماذا يطاردها، كانت تمضي فقط، تجر ابنها وكأن الحبل المتعلق به ليس ممسكًا بكتفها، بل بعمود روحها. كانت الطائرات تدور من فوقها وتصدر ذلك الطنين الحادّ، وكأنه إبرة تدق جدار أذنها لتذكّرها أنها ليست وحدها. ومع ذلك، كانت وحدتها أكبر من كل شيء. كانت تمشي داخل قوقعة خاصة، دائرة صغيرة جدًا لا يدخلها أحد سواها وسوى ابنها المُسَجَّى خلفها. كأن العالم كله محذوف إلا هما، كأن الحرب بكل صراخها، بكل أبراجها المنهارة، بكل صواريخها ودباباتها، تتحرك في طبقة أخرى من الوجود لا تصل إليها ولا تهتم بها.

كانت الانفجارات تهز الأرض تحت قدميها، تُرْبِك خطواتها، تدفعها لأن تقع مرة أو تنحني مرة أخرى. كانت الشظايا تتطاير بعيدًا وقريبًا، والنيران تشتعل في المباني كأن الليل يشرب الضوء ويعيده رمادًا. لكنها لم تر شيئًا، لم تستوعب شيئًا. كانت تسمع فقط، تسمع كأن السمع وظيفة جسد آخر لا علاقة لها به. كل صوت كان يصلها، لكنها لا تتفاعل معه. كأن جسدها أصبح قالبًا من طين يتحرك بقوة غامضة.

صوت الدبابات كان الأكثر حضورًا، صوتًا ثقيلاً، يشبه الأرض حين تغضب. كانت تسمعه من مسافة ليست بعيدة، صوتًا حديديًا يتحرك، يقطع الشوارع، يهدم الأرصفة، يدوس الهواء نفسه. ومع ذلك، لم يتسرب الخوف الحقيقي إلى قلبها، ذلك الخوف الذي يجعل الإنسان يركض لنجاته أو يختبئ أو يصرخ. كانت أكبر من الخوف، أو ربما أصغر من أن يتسع قلبها لكل هذا الفزع. كانت متشبثة بصوت واحد فقط: صوت أنفاس ابنها التي لم تعد موجودة. كل ما في رأسها كان يدور حول شيء واحد: بدر... بدر... بدر.

كانت لا تشعر بجسدها، ولا بقوة الحبل الذي يغوص في لحم كتفها، ولا بآلام عضلاتها، ولا بأنفاسها التي صارت تقطع كالسكاكين. كانت تمشي كأنها محمولة على إيمان غريب، أو على حزن يمشي بها لا تمشي به. العالم كله كان ينهار حولها، تتساقط البنايات، والطرقات تتمزق، وأصوات الرصاص تكاد تشق الهواء نصفين، لكن داخلها كان ساكنًا كقبر، أو كرحم قديم يحضن شيئًا واحدًا فقط: ابنها.

كانت القوقعة التي حولها تحميها من كل شيء وتعرضها لكل شيء في الوقت نفسه. تحميها من الخوف لأنها لا تسمع إلا قلبها، وتعرضها للموت لأنها تمشي مكشوفة بالكامل. ومع ذلك، لم يكن يهمها. لم تعد تهتم إن انفجرت السماء أو ارتجّت الأرض أو طُمس الشارع كله، كل شيء صار صغيرًا أمام ثقل الجسد الذي تجره خلفها.

كانت تعرف أنها لو توقفت لانهارت. ولو انهارت لما استطاعت أن تكمل سحب ابنها إلى البيت، إلى آخر مكان يمكن أن يجمعهما مهما كان صغيرًا وهشًّا ومهدّدًا. لذلك كانت تمشي. تمشي لأنها لا تستطيع أن تفعل شيئًا غير المشي. تمشي لأنها لو التفتت ولو للحظة إلى العالم الهادر حولها لصرخت صرخة تشق الكون نصفين. تمشي لأنها لا تريد أن ترى شيئًا سوى ابنها، ولا تسمع شيئًا سوى اسمه، ولا تشعر بشيء سوى حزنه.

كانت الطائرات فوقها، الانفجارات حولها، والدبابات خلفها... لكن بدر كان ملتصقًا بروحها، يمحو كل شيء آخر.
وهذا وحده كان عالمها.

كانت حينما وصلت إلى باب منزلهم كأنها شبح أو جثة تجر جثة. شعرها مبعثر على وجهها، تغطيها الدماء، ملابسها ممزقة، عيناها ذابلتان. أفلت الحبل من يدها دون وعي وسقطت بجوار ابنها.

خرج زوجها على صوت صراخها، وبمجرد أن فتح الباب شاهد بدرًا ملقى أمامه. ألقى بنفسه فوق جثته وأخذ يقبله، ثم تمالك نفسه واحتضن زوجته، وامتزجت دموعهما ببعضهما. ثم حمل ابنه وأدخله إلى البيت، وارتمى عليه يحضنه وتحضنه زوجته، وأصبح الثلاثة كجسد واحد، وكأنهم يريدون أن يَهَباه حياتهما علّه يفيق من هذا النوم القاتل والطويل، ولكن عبثًا يفعلان.

ثم صمتا، وساد الصمت الرهيب بالمكان، أنظارهما متعلقة ببدر فقط، يتحسسانه

ببطء. كانت ليلة أم بدر وأبي بدر في البيت ليلة يشبه سوادها سواد الرحم الذي يبتلع كل ضوء. جلسا في الغرفة نفسها التي كان بدر يدخلها كل مساء، يضع حذاءه عند الباب ويقول: "يا أُمّاه، ماذا طبختِ اليوم؟" لكن الليلة لا رائحة طعام، ولا صوت، ولا حياة. كان الصمت يجلس معهما على الكرسي الثالث، صمت أثقل من الجدران، صمت له وزن وله شكل وله مخالب تحفر في صدريهما.

كانت أم بدر تجلس ملتصقة بالحائط، وركبتاها تضغطان بعضهما كأنها تحاول أن تمنع جسدها من الانهيار. عاشت ساعات طويلة وهي تسرد ما جرى، تروي القصة مرة بعد مرة، وكأنها إن توقفت للحظة ستنسى التفاصيل، وستسرقه الحرب منها مرة أخرى. كانت الكلمات تتدفق منها أحيانًا كالسيل، وأحيانًا تتوقف عند حلقها كحصاة كبيرة تؤلمها ولا تستطيع ابتلاعها. وكلما روت له كيف جرّت بدرًا، وكيف صرخت، وكيف هاجمت الكلاب، كانت يدا أبي بدر ترتعشان وهو ينظر إلى الأرض، كأنه يبحث عن بدر بين البلاط، أو عن أثر قدميه حين كان صغيرًا.

كانت دموعهما تتناوب. مرة تبكي هي فيصمت هو، ومرة ينفجر بالبكاء فيتجمد وجهها كحجر، ومرة يبكيان معًا بكاءً خافتًا كأنهما يخافان أن يسمعه أحد فيعيد لهما المصيبة من جديد. ساعات طويلة لم يتحركا فيها. لا يشعلان ضوءًا، ولا يفتحان نافذة، ولا يتبادلان كلمات. كان الليل طويلاً، ممتدًا مثل طريق بلا نهاية، وكان البيت يشعر بهما لا كوالدين، بل كجسدين محطّمين فقدا جزءًا من روحهما.

وفي لحظات الصمت العميقة، كانت أم بدر تضع يدها على المكان الذي كان يجلس فيه بدر كل ليلة، وتهمس بصوت مكسور: "هنا كان يجلس... هنا كان يضحك."

فيقترب أبو بدر منها ببطء، وكأنهما يخافان لمس الحزن كي لا ينهار، ويجلسان متقاربين، يتكئ كل منهما على الآخر، كأنهما يحاولان أن يمنعا الروح من الانطفاء. وهكذا مرت ليلتهما... ليل لا ينتهي.

وفي ختام الحكاية، بقيت أم بدر جالسة في زاوية البيت، تُحرك نظراتها بين الجدران التي شهدت أولى خطوات ابنها، ووجهه الصامت الذي يختصر كل الحرب وكل الخراب. كان الليل ثقيلاً، ممتلئًا بما لا يُقال، وكأن الصمت صار لغة جديدة تتقنها أكثر من الكلام. شعرت أنها تقف عند الحدّ الفاصل بين عالمين: عالم كانت فيه أمًا تُعد الطعام وتنتظر عودة ابنها، وعالم صارت فيه تحمل جرحًا لا يندمل، يلازمها ما بقي من عمرها.

لم تعد تفكر كيف ستنام، أو كيف سيشرق الصباح، فالأيام كلها تشبه بعضها حين يغيب بدر. لكنها كانت تدرك في أعماقها أن عليه ألّا يُمحى، ألّا يصبح مجرد رقم في قائمة طويلة من الشهداء. كانت تشعر أن رواية حكايته هي الطريقة الوحيدة لتبقيه حيًّا، الطريقة الوحيدة لتقول للعالم: كان هنا إنسان، وكان له اسم ووجه وضحكة، وكان له أم تحبه حتى آخر مدى.

رفعت رأسها، نظرت نحو الباب الذي جُرّ منه آخر مرة، ثم همست كما لو أنها تخاطب روحه: "سأظل أحملك في قلبي... وسأروي قصتك، يا بدر، ما دام فيَّ نفَس واحد."

وهكذا انتهت ليلتها، لا بنهاية، بل ببداية صمتٍ كبير، صمتٍ يحمل بين طياته ما لا تستطيع أي كلمات أن تصفه... سوى أن القلب فقد قمَره الوحيد، وبقيت السماء بلا بدر.

# عجائب الدنيا الثماني

في زمنٍ اختلطت فيه المفاهيم، ولم تَعُد الكلمات قادرة على حمل ثقل الواقع، يصبح الكلام عن غزة محاولة لفهم ما لا يُفهم، وكتابة ما يتجاوز حدود الوصف. ليست غزة مكانًا يُحكى عنه من بعيد، ولا حدثًا عابرًا في نشرة أخبار، بل تجربة إنسانية كاملة تُعاش يوميًا بكل تفاصيلها القاسية. هنا لا تُقاس الحياة بما ننجزه، بل بما ننجو منه، ولا يُحسب الزمن بعدد الأيام، بل بعدد المرات التي يمر فيها الإنسان بحافة الموت ويعود محمّلًا بأسئلة أكبر منه.

لا يسعى هذا النص إلى سرد وقائع بقدر ما يحاول الاقتراب من الجوهر الإنساني لما يحدث. هو محاولة لرؤية الإنسان داخل الركام، لا الركام وحده، ولسماع الصوت الخافت الذي يضيع بين أزيز الطائرات وضجيج التحليلات السياسية. في غزة، لا يكون الألم حدثًا استثنائيًا، بل حالة مستمرة تتسلل إلى تفاصيل الحياة الصغيرة، إلى طريقة المشي، والنظر، والصمت، وحتى الانتظار. كل شيء هنا يترك أثرًا، وكل أثر يتحول مع الوقت إلى عبء إضافي يحمله الناس بصمت.

الكتابة عن غزة ليست ترفًا فكريًا ولا تمرينًا لغويًا، بل مسؤولية ثقيلة، لأن الواقع يتقدم دائمًا على اللغة بخطوة. ما يُكتب لا يستطيع أن يحيط بكل ما يُعاش، ولا أن ينقل حجم الفقد والخوف والخذلان كما هو، لكنه قد يفتح نافذة لفهم أعمق، أو يترك أثرًا صغيرًا في وعي من يقرأ. لا يدّعي هذا النص امتلاك الحقيقة الكاملة، ولا يقدّم إجابات جاهزة، بل يطرح تساؤلات تنبع من قلب التجربة نفسها.

نحاول من خلال هذه السطور، الاقتراب من غزة كما هي اليوم: مدينة تتغير ملامحها تحت وطأة الدمار، وإنسان يعيد تعريف ذاته وسط الانهيار. نحاول أن نرى كيف يعيش الناس، كيف يتأقلمون، كيف يحافظون على إنسانيتهم في مكان تُختبر فيه هذه الإنسانية كل يوم. إنها محاولة لفهم ما يعنيه أن تكون إنسانًا في غزة، حيث يصبح البقاء فعلًا يوميًا، وحيث لا يشبه الواقع أي صورة عرفناها من قبل.

حينما نضيف فلسطين لعجائب الدنيا السبع يصبح العدد ثمانية.

فمنذ سنة 1948، ونحن نهوي في هاوية لا نهاية لها، ثم نبدأ بمحاولة الصعود والبناء والتغيير. ولكن للأسف نجد أنفسنا انتقلنا من القاع إلى قاع يبدو لا نهاية له. تمر السنون تلو السنين، ونستمر بدفع ثمن الحرية من لحمنا ودمنا، وجاهزون دائمًا للتضحية وبلا حدود، ولم يبقَ بيت فلسطيني إلا وقدم الشهداء والأسرى والجرحى من أجل الحرية وحلم الدولة والاستقلال، وما زلنا ننتظر الفرج. أصبح الصبر شعارنا، فلا جاء فرج ولا عاد بنا صبرًا، ويبدو أن الصبر تحول إلى صابر، وهاجر صابر وتركنا صابرين وحيدين، مجبرين على الصبر والحرمان والقهر والخذلان. ولذلك أعتقد أن الشعب الفلسطيني يُضاف لعجائب الدنيا السبع بالصبر وتحمل الأهوال. منذ النكبة وحتى الآن والحروب لم تتوقف، والانتفاضات لا تنتهي. أيُعقل أن نخوض ستة حروب خلال 14 عامًا؟ هل نحن المقاول الوحيد بالعالم الذي يخوض الحروب نيابة عن العالم أجمع؟ يبدو أننا أصبحنا حقل تجارب لكل أسلحة الكون.

هل قدرنا أن نعيش ونموت في هذا الصراع المَقيت على أرض باقية لن تزول ولن تتغير ولن تغادر مكانها، وباقية منذ الأزل؟ ولكن حتمًا سنزول نحن، وسيزول الاحتلال، وكل من على وجه البسيطة من بشر بعد مائة عام سيكونون أمواتًا تحت الثرى، حتى من وُلِد اليوم فأتوقع أن صراع الحرية بانتظاره، وسيعيش العذاب ثم يغادر.

هل قدرنا كفلسطينيين أن نتشتت في بقاع الأرض؟ ومن ظلوا صامدين إما أن يستشهدوا، أو يُعتقلوا، أو يُصابوا بالحروب، أو يُهجّروا قسرًا. لا أحد يهاجر طواعية. لا أحد مرتاح في بلده يهاجر منها. أكثر من 6 ملايين فلسطيني يعيشون بالخارج، منتشرين بكل دول العالم، ينتظرون العودة ولكن يموتون غرباء مقهورين يحلمون بيوم عودتهم إلى منبتهم الأول!

بتنا نُذبح بالمئات في كل يوم على مرأى من العالم أمام شاشات التلفاز، والعالم لا يُحرك ساكنًا، إلا فئة قليلة من أحرار العالم الذين يشعرون بنا ويتضامنون معنا ويهتفون: الحرية لفلسطين، أوقفوا الحرب في غزة!

منذ سنة 1987، الانتفاضة الأولى، وإلى الآن والهتاف لا يتوقف. لا نكاد نلتقط أنفاسنا من الحرب حتى نبدأ حربًا جديدة أشد من سابقتها، وتستمر الحروب كصخرة سيزيف، وفي كل مرة نفس الدمار ونفس الموت ونفس النتائج. لا زلنا نتعرض منذ 820 يومًا لحرب طاحنة لا أعتقد أن التاريخ شهد أبشع منها. آلاف الأطفال والنساء والشيوخ قد استشهدوا. ما يقارب من 250 ألف إنسان ما بين شهيد ومصاب، وآلاف المعتقلين، وطبعًا حسب إحصائية وزارة الصحة بناءً على من وصلت جثثهم إلى المستشفى. أما الآلاف ممن بقوا تحت أنقاض منازلهم، ومن دُفنوا في مقابر جماعية، ومن فُقدوا، فهؤلاء جميعًا خارج العدد المعلن. الله وحده يعلم من مات ومن ظل حيًا.

إننا نحتاج أن نعلم من قُتل، ومن اعتُقل، ومن تم تقطيع أطرافه وتهجيره وتجويعه! هل سلم أحد من جبروتهم؟ سواء كانوا أطفالًا، شيوخًا، نساءً، شجرًا أو حجرًا، حتى الهواء والتربة تم تلويثهما باليورانيوم المسرطن.

يبدو أننا بحاجة لخطاب جديد، لفكر مختلف نستطيع من خلاله أن نلملم ما تبقى لنا، ونفكر كيف ننال حريتنا ونستعيد حقوقنا بعيدًا عن النمطية وتجريب المُجرَّب. وحتى نجدد خطابنا يجب أن نجدد حياتنا. على ما يبدو أننا في غزة بتنا نعيش في عالم آخر لا يشبه أي مكان في الدنيا.

شاهدت بالأمس فيلمًا سينمائيًا مستوحى من قصة حقيقية تدور أحداثه في إفريقيا، لفتى استطاع أن يصنع مولدًا كهربائيًا من دينامو ودراجة هوائية، واستخرج المياه، وأنقذ أهل قريته من المجاعة.

كنت فيما مضى حينما أشاهد الأحداث في إفريقيا والمجاعة في الصومال والحروب الأهلية والنزاعات التي كانت تدور بين أهل القرية على الطعام، أحزن وأستغرب كثيرًا من تلك المشاهد ومن ظلم العالم وغياب العدالة الاجتماعية. وأحيانًا كثيرة كنت لا أريد أن أصدق ما أشاهد لهول تلك المناظر، وخاصة الأطفال الجوعى والجفاف والحرمان.

كان مثل هذا الفيلم فيما مضى يعتبر بالنسبة لي قادمًا من عالم آخر، ولك مطلق الحرية أن تصدق أنه موجود بعالمنا أو لا تصدق. شعرت بالأمس وأنا أشاهد أحداث الفيلم، أنني أشاهد غزة، ولم أستغرب أو أندهش من أحداث الفيلم، وحينما أغلقوا المدرسة الوحيدة بالقرية بسبب عدم تمكن الطلبة من سداد الرسوم، تذكرت المدارس، وأننا قبل الحرب كنا في مثل هذه الأيام في بداية العام الدراسي الجديد. وبحكم أن منزلي يقع في شارع المدارس، فكنت في كل عام أستمتع بمشاهدة فرحة الأطفال ببداية عامهم الدراسي بملابسهم الجديدة، وفرحتهم العارمة، وصراخهم المتواصل أمام الباعة المتجولين، وانتظارهم للحافلات التي تقلهم عند العودة، ومشاجراتهم التي لا تنقطع ويتوارثها الأجيال جيلًا بعد جيل. وتذكرت معاناتي مع المواصلات، والشارع شبه مغلق لأكثر من ساعة بسبب الازدحام الشديد، وكثيرًا ما كنت أفضل المشي على تلك الزحمة اليومية التي تستمر طوال العام الدراسي، خاصة في أوقات الصباح الساعة السادسة والنصف ووقت المغادرة الساعة الثانية عشرة ظهرًا. كم أشتاق لتلك الحالة ولهؤلاء الأطفال.

الأطفال الذين أصبحوا يعيشون في المدارس في ظروف لا إنسانية لا يمكن للعقل أن يتخيلها، ظروف وحالة لا توصف. أصبحت أشكال الناس كالأحياء الأموات، وحالة شرود وجمود وغضب وحزن وخوف وقلق تعلو الوجوه يعجز بيكاسو عن التعبير عنها، حالة لا يشبهها حالة.

حتى وأنا أحاول الوصف، محاولاتي فاشلة. الواقع لا يوصف: الرائحة، والمجاري، والحمامات، وأعداد الأسر داخل الفصل الواحد لا توصف. أفران الطين المنتشرة حول المدارس، والنساء والأطفال حولها وهم يخبزون على الحطب. الكم الهائل من الحمير التي تنقل البشر بأعداد كبيرة على "الكارّة" الواحدة كأنهم كومة لحم لا توصف. أن تصبح الحمير وسيلة المواصلات الرئيسية، هذا من العالم الآخر.

أن ننسى أن هناك في الدنيا شيئًا اسمه كهرباء، وما تشمله كلمة كهرباء من ثلاجات ومراوح وتدفئة وخلاطات وكمبيوترات وإضاءة... إلخ. صدقوني، كل ذلك

قد نسيناه نحن في العالم الآخر، عالم أكثر شيء رائج به هو الموت، وخاصة موت الأطفال والنساء.

تشاهد في العالم الآخر الناس تسير دون حذاء بشكل طبيعي دون أن يلاحظ أحد ذلك، لأنه لا توجد أحذية ولا ملابس. كل ما نرتديه ملابسنا القديمة، والمعروض للبيع ملابس قديمة منذ فترة، وطبعًا من الطبيعي أن تشاهد الناس بملابس ممزقة يصطفون بالمئات أمام التكايا حاملين أوانيَ لا علاقة لها بالأواني ليضعوا بها ما تيسر من طعام يشبه الطعام.

في العالم الآخر يصبح الموت شيئًا عاديًا جدًا، قد تشاهد ابنًا دفن أباه الآن وغادر المقابر ليذهب لعمله وكأن شيئًا لم يحدث. هناك تبلد في المشاعر، ودموع تحجرت في المقل.

فيما مضى كان بالنسبة لي العالم الآخر هو ما يقال عند الموت: انتقل إلى العالم الآخر. أو حينما كانت تُثار بين الفينة والأخرى قصة المخلوقات الفضائية القادمة من العالم الآخر، أو محاولة عيشنا واكتشاف كوكب المريخ لنعيش في العالم الآخر. حينما تُجبر النساء على القيام بأعمال أو أفعال يعجز عنها أعتى الرجال في أماكن وبلدان أخرى فنحن في العالم الآخر. من كان سيقتنع لو أن شخصًا أخبره أن باستطاعة امرأة أن تحمل على رأسها كيس طحين يزن 25 كيلوجرامًا وتسير به مسافة 7 كيلومترات أو تزيد!

كلما شاهدت هذا المشهد، يقفز "الأسد الهصور" من عرينه ويبدأ بنهش قلبي، متوجعًا أتأمل ما يظهر من وجهها الغارق في ثنايا "كيس الدقيق" الذي ظفرت به بكل مشقة وانتزعته من براثن الموت المحقق.

في الحقيقة، مهما أُوتيت من مقدرة على الوصف، فإن مشاعري قبل قلمي ستبقى عاجزة عن الإحاطة بكافة تفاصيل المشهد التراجيدي، حيث تختلط كل الألوان وتمتزج مع شتى ألوان الغضب والقهر والحزن والتعب، ورائحة التراب

المجبول بالدم واللحم والخذلان. للموت هنا طقوس لا يعرفها إلا الذين عايشوها تحت كل أنواع القصف والدمار في مقتلة لم يعرف التاريخ لها مثيلًا.

في غزة المدمّرة، لم يكن التكيّف خيارًا، بل ضرورة فرضها الواقع القاسي. لم يستيقظ الإنسان الغزّي يومًا وقرّر أن يتأقلم مع الخراب، بل وجد نفسه محاطًا به من كل الجهات، فاضطر أن يعيد تعريف الحياة بما هو متاح، لا بما يتمناه. لم يكن التكيّف هنا رفاهية نفسية ولا قوة خارقة، بل محاولة يومية للبقاء، وخطوة فوق الركام، ونَفَسًا إضافيًا في مدينة تتنفس بصعوبة.

تأقلم الإنسان في غزة حين فقد المكان معناه القديم. لم يعد البيت جدرانًا وسقفًا، بل أي مساحة يمكن الاحتماء بها مؤقتًا. والشارع لم يعد ممرًا للحياة، بل مزيجًا غريبًا من الدمار والمياه الراكدة، نصفه مجارٍ لمطر لا يجد طريقه، ونصفه الآخر أقدام بشر يمشون بحذر، يقفزون فوق الحفر والأنقاض كأنهم يمارسون طقسًا يوميًا اعتادته أجسادهم قبل عقولهم. لم يعد أحد ينتظر إصلاح الطرق، فالمدينة نفسها أصبحت طريقًا وعائقًا في آن واحد.

تأقلمت غزة بدورها مع تدميرها، أو هكذا يبدو. المدينة التي كانت تضجّ بالحياة، بالفنادق والمطاعم والأبراج والإضاءة، تحوّلت إلى مساحات مفتوحة من الظلام. الفنادق التي كانت تستقبل الزوّار صارت خيامًا للنازحين، والمطاعم التي كانت تجمع الناس حول الطاولات تحولت إلى نقاط توزيع أو ذكريات معلّقة في الذاكرة. الأبراج التي كانت تلمع ليلًا أصبحت ظلالًا مكسورة، والإضاءة التي كانت تزيّن الشوارع صارت رفاهية من زمن آخر.

ورغم كل ذلك، لم يتوقف الناس عن الحركة. لا يسير الغزي في مدينته اليوم كما كان يفعل سابقًا، بل يتحرك بعينين مفتوحتين على الخطر، وبجسد يعرف كيف يتفادى، وكيف يقفز، وكيف يواصل السير حتى حين يبدو الطريق مستحيلًا. الأطفال يلعبون بين الأنقاض، لا لأن المكان آمن، بل لأن الطفولة تبحث عن مساحة لها مهما ضاقت. تنظم النساء الحياة وسط الفوضى، ويحاول الرجال ترميم ما

يمكن ترميمه، ولو كان ذلك مجرد شعور بالاستمرار.

تعكس غزة اليوم الغزّي أكثر من أي وقت مضى. أصبحت المدينة مرآة لإنسانها: مثقلة، مجروحة، لكنها واقفة. كما تأقلم الإنسان مع دمارها، تأقلمت هي مع وجوده؛ مدينة وإنسان يشبهان بعضهما في الصبر القاسي، وفي القدرة الغريبة على العيش وسط ما لا يُحتمل.

لا يعني الموت هنا توقف الجسد عن الحركة فقط، لكنه يسعى لانتزاع الروح والأمل، والإكراه على نمط حياة هو فوق احتمال طاقة البشر. فهذه الأم التي تصارع الحياة من أجل سلامة أبنائها، لا شيء يثنيها في هذا المعترك عن مواصلة السعي الحثيث من أجل التأكيد على إثبات ذاتها الحرة في مواجهة أعتى وأقسى المهمات، متحدية كافة الصعوبات التي فرضتها هذه الحرب اللعينة.

ومع كل هذا العذاب اليومي أمام متطلبات تبدأ ولا تنتهي، نجدها أحيانًا تصرخ، تنفجر حتى تتأكد أنها ما زالت حية، وما زالت تستطيع أن تتألم وتتأمل وتحلم بالحياة. فتراها تحمل ابنها راكضة به إلى العيادة لتعالجه من الأمراض المنتشرة بأنواع وأشكال لم نعهدها في السابق، وطبعًا آخر شيء يمكن أن تجده في العيادة هو الدواء. تقريبًا لا يوجد سوى "أكامول"، ويُعطى شريط واحد للحالات المستعصية.

نعم، جميعنا رجالًا ونساءً وأطفالًا وشيوخًا ذقنا الأمرّين في هذه المقتلة، وهذا ما يدفعني للاعتقاد جازمًا أن للمرأة الغزية النصيب الأكبر من العذاب الذي لا يُحتمل، خاصة بفقدانهن الزوج والابن والأخ والسند. الكثيرات منهن أضحين بلا معيل يستندن إليه، وبقين وحيدات يصارعن من أجل الحياة.

هذه هي الأم والأخت والابنة الفلسطينية. لو كان هناك جزء بسيط متبق من الضمير الإنساني، فعلى العالم كله أن ينحني إجلالًا ويقبل رؤوسكن العاليات. آه يا قلبي الموجوع، نشعر بالعجز والخذلان أمام صمودكن وشموخكن الكبير.

إنه العذاب والموت الذي يتكرر في كل لحظة، ولا يتوقف، مثل صخرة "سيزيف" الذي كان كلما رفعها إلى أعلى قمة الجبل عادت وسقطت مرة ثانية، مفنيًا عمره وهو على هذا المنوال. كلما رفعها عادت وسقطت ليعاود الكرّة من جديد. نحن نعيش نفس الحالة من انتظار توقف الحرب، ومع كل أمل جديد وفي اللحظة الأخيرة تسقط الصخرة وتُعاد الكرّة.

ما احتوته سطور هذه المادة لا يعد شيئًا أمام الواقع الحقيقي الذي تعيشه نساؤنا في ظرف الحرب، لأن الواقع عصيٌّ على أن تحتويه الكلمات مهما بلغت قدرتها على الوصف.

شخصيًا، كشاهد يحيا في عين العاصفة ويرى أحوال نصف المجتمع وما يعانينه من مشاق على مدار الوقت، لا يسعني سوى أن أطبع قبلة احترام وتقدير على جبين كل امرأة وقفت بكل شجاعة وتضحية بجانب الشق الإنساني من الحياة، الحياة التي لا يمكن لها أن تكتمل دونكن. أتمنى أن تنتهي الحرب غدًا، وتعود كل النساء إلى حياة تشبه الحياة، ويحاول الجميع أن يعوضهن ولو قليلًا عما عانينه في هذه الحرب التي لا وصف لبشاعتها.

نعم، كل من عاش الحرب تعرض للخوف والقلق وعدم الأمان والحرمان والخذلان، والصدمات النفسية التي تنوء الجبال بحملها. ولكن كل ذلك سوف يتلاشى فور انتهاء الحرب. أعلم أن الحرب ستلقي بظلالها عميقًا في النفوس، وسيظل هناك بعض الندوب التي لن تُنسى، ولكن هناك ميلاد لإنسان جديد صُهر من نار وخيمة وصبر واحتمال وحرمان، يعرف كيف ينبعث مرة أخرى كالعنقاء، أكثر قوة وأشد صلابة، عصيٌّ على الانكسار.

لا نبحث في نهاية هذا المشهد المفتوح على الألم عن شفقة، ولا نطلب دموعًا إضافية، فقد استهلكنا ما يكفي من الحزن. ما نريده فقط أن يُرى هذا الإنسان الفلسطيني كما هو، بلا تشويه ولا اختزال، بلا أرقام ولا عناوين عاجلة. أن يُفهم أن ما نعيشه ليس بطولة رومانسية ولا قدرًا سماويًا، بل واقعًا فُرض علينا،

وندفع ثمنه كل يوم من أعمارنا وأجسادنا وأحلامنا المؤجلة. نحن لا نعتاد الموت لأنه سهل، بل لأن البديل عن الاعتياد هو الجنون. لا نصبر لأن الصبر خيار مريح، بل لأنه آخر ما تبقى لنا حين تُسلب كل الخيارات الأخرى.

لسنا شعبًا مولعًا بالحروب، ولا مغرمًا بالفقد، ولا نبحث عن المجد بين الركام. نحن بشر نحب الحياة كما يحبها الآخرون، نحلم ببيوت آمنة، وبأيام عادية، وبأطفال يكبرون دون خوف، وبأمهات لا يُختبرن في أقسى امتحانات الوجود. ما يحدث لنا ليس مشهدًا عابرًا في نشرة أخبار، بل تجربة كاملة تُعيد تشكيل الإنسان من الداخل، وتترك ندوبًا لا تُرى، لكنها تبقى محفورة في الذاكرة والروح.

قد يتوقف القصف يومًا، وقد تصمت الطائرات، لكن آثار هذه الحرب ستظل تسكننا طويلًا، في تفاصيلنا الصغيرة، في نظرتنا للعالم، وفي ثقتنا المكسورة بكل ما قيل لنا عن العدالة والإنسانية. ومع ذلك، ورغم كل هذا الثقل، ما زال في هذا الشعب ما يجعله قائمًا، لا من باب التحدي الفارغ، بل من باب التمسك بالحياة نفسها. حياة نعرف أنها صعبة، وقاسية، وغير عادلة، لكنها تظل حياتنا، نتمسك بها لا لأننا لا نموت، بل لأننا نرفض أن نُمحى بصمت.

ورغم الظلام الكثيف الذي يحيط بالحياة في غزة، ما زالت أحلام الناس قائمة وحاضرة بقوة. لم تنكسر الرغبة في الحياة، بل ازدادت إصرارًا على الاستمرار. يحلم الناس بغدٍ أفضل، لا بوصفه احتمالًا بعيدًا، بل كحق طبيعي لا بد أن يأتي. هناك من يحلم بإعادة بناء ما تهدّم، ومن يرى في كل صباح فرصة جديدة للبداية، ومن يزرع الأمل في أطفاله رغم القسوة. التفاؤل هنا ليس إنكارًا للواقع، بل موقف واعٍ في مواجهته. الأحلام في غزة ليست هروبًا من الألم، بل طاقة تدفع الناس إلى التمسك بالحياة، والإيمان بأن هذا الليل، مهما طال، لا بد أن يعقبه فجر.

# أين ذهب أطفال غزة؟

حينما أتساءل: أين ذهب الأطفال؟ لا أقصد ما يقارب الـ 18000 شهيد من الأطفال الذين سقطوا خلال الحرب، ولا عشرات الآلاف من الجرحى، بل أقصد فعليًا أنني لم أعد أشاهد أطفالًا في غزة؛ بل ما أشاهده هو رجالٌ بأحجام صغيرة يملؤون الشوارع. حتى لغتهم حينما يتكلمون ليست لغة أطفال؛ فإذا سألت أحدهم، يجيبك عشرة أجوبة في لحظة، وإذا أزعجته دون قصد — مثلًا لو حاولت أن تداعبه كطفل، وخاصة إذا كان لا يعرفك — يبدأ بالتطاول والتهجم عليك ورفع صوته، وكأنه رجل في الخمسين؛ لأنه فعلًا لا يشعر بأنه طفل، فيعتقد أنك تسخر منه لو قلت له مثلًا: "أنت شاطر يا حبيبي."

تحتار ماذا تفعل معه؛ فإذا رددت عليه سُتلام بأنك ساويت عقلك بعقل طفل، وإذا سكتَّ يكون هذا الطفل قد أهانك وتعززت لديه لغة البلطجة. يبدو أن القاعدة الذهبية التي تربّينا عليها، وهي "احترام الكبير"، قد ذهبت مع غبار البيوت التي دُمّرت، وفقدنا الطفولة والأطفال في هذه الحرب. وكيف لا، وقد تعرضوا لصدمات ونكبات تنأى عن حملها الجبال! لكل إنسان قدرة على التحمل قبل أن ينهار، سواء نفسيًا أو جسديًا، وما تحمّله وشاهده وعاشه أهل غزة في هذه الحرب يفوق طاقة تحمل البشر بمراحل.

أعتقد أننا جميعًا في غزة بحاجة إلى رعاية نفسية خاصة، والمحظوظون هم من يستطيعون السفر خارج غزة، ولو لشهر، ليستعيدوا أرواحهم ويتذكروا الحياة الطبيعية للبشر العاديين، التي أظن أن معظمنا قد نسيها أو نسي جلّها، ثم يعودون.

الأطفال هم أكثر من ظُلموا؛ ليس فقط لبراءتهم ولا لأنه لا ذنب لهم في كل ما جرى، ولكن لأن النسبة الأكبر ممّن قُتلوا وأصيبوا كانت من الأطفال. لم يسلم طفل في غزة من هذه الحرب. لا أحد يتعجب من أي فعل لأي طفل في غزة؛ لأنه ببساطة قد يكون الطفل الوحيد المتبقي من عائلته، أو يكون قد شاهد أباه أو أمه أو أخاه يفارق الحياة أمام عينيه، والأدهى أن كثيرين قد تمزقت أشلاؤهم. وأبسط الأمور أنه قد بكى ليالٍ من الجوع الذي تعرض له الجميع.

كنت أتمنى أن يقوم أحدهم بعمل دراسة لأهل غزة: كم يومًا ناموا خلال أيام الحرب التي تجاوزت 800 يوم؟ وكم صرخ الأطفال ليلًا ونهارًا عند سماع أصوات الصواريخ التي كثيرًا ما لم تكن تتوقف؟ من يوقف بكاء الأطفال؟ لا أحد يستطيع المساعدة. كلنا شعرنا بالعجز. نعم، كبر الأطفال على غير المتوقع؛ وكيف لا وهم منذ الصباح يصطفون في طابور يمتد لعشرات الأمتار، ينتظرون شاحنة المياه العذبة التي ستوزع المياه على أهل الحي؟ وكل وعاء مياه يحمله الأطفال يتسع لما يقارب 15 لترًا، وجميع من يقف في هذا الطابور أطفال تتراوح أعمارهم بين 5 و 14 عامًا.

حينما تشاهدهم وهم يحملون تلك الأوعية على اختلاف أحجامها تكاد لا تصدق عينيك. أحيانًا يستاء الرجال من حمل تلك الأواني لثقلها. ومن يساوره الشك في ذلك فليعد إلى صور وفيديوهات طوابير المياه خلال الحرب؛ سيرى أن جميع من يقف بالطابور أو يزاحم للحصول على المياه هم الأطفال.

ثم بعد ذلك، هؤلاء الأطفال أنفسهم مسؤولون عن حمل "أقراص" العجين والذهاب بها إلى الخبازين المنتشرين بأفرانهم في الشوارع لخَبز ما أراد الناس. وبعد انتهائهم من توفير المياه والخبز، يبدأ الكثير منهم بالذهاب إلى عمله، وغالبًا إلى "بسطة" صغيرة أو كبيرة يبيع عليها ما تيسر من أشياء، سواء مأكولات للأطفال — بسكويت وشوكولاتة وخلافه — أو بسطة خضار، أو أوانٍ وملابس مستعملة، أو كبائع متجول.

ووقت طعام الغداء يتركون كل شيء بأيديهم، ومعظمهم يذهبون للوقوف في طابور "التكية" ليحصلوا على طعام الغداء للعائلة: ما تيسر من عدس وأرز ومعكرونة. طابور التكية مختلف، ففي الغالب لا يوجد طابور، بل معركة بقاء للأقوى والأشرس في ظل تلك الأعداد الكبيرة المنتظرة لما يسكت بطونها من "طناجر" التكايا، وذلك التزاحم القاتل الذي كثيرًا ما يحدث معه عراك بالأيدي بين الأطفال حول من أتى قبل الآخر، ومن له الحق والأسبقية في الحصول على حصته من هذا الطعام، الذي غالبًا ما يكون أسوأ طعام قد تتذوقه؛ طعامًا كأنه

ليس بطعام.

أين اختفى أطفال غزة؟ يبدو أننا فقدناهم وفقدونا في زحمة الحرب. حتى إنهم قد نسوا المدارس، ومعظمهم لا يعرفون عن المدارس شيئًا، والذين دخلوها كنازحين وعاشوا داخل فصولها وكبروا فيها، تكونت لديهم أسوأ فكرة ممكنة عن المدرسة؛ ذلك المكان الذي نشأ الطفل ووجد نفسه محشورًا فيه مع آلاف الناس، وجميعهم يفتقدون أدنى مقومات الحياة، بدءًا بالحمام المشترك وطابور المعاناة الصباحي حتى تستطيع الوصول إلى الحمام الذي لا يشبه الحمام بأي حال من الأحوال؛ حيث القاذورات تملأ الأرض دائمًا وحتى الجدران، ولا يستطيع الشخص السير على أرضيته إلا بصعوبة. فتخيل كيف يقضي حاجته وسط كل هذه القاذورات ومعاناة الانتظار في الطابور!

تحولت المدرسة في ذاكرة هؤلاء الأطفال إلى مكان للمشاجرات طوال الوقت، ومكان مزدحم جدًا، وحركة لا تهدأ طوال اليوم: باعة متجولون ومقيمون، سيارات مياه ومساعدات تابعة لوكالة غوث وتشغيل اللاجئين (الأونروا) تدخل وتخرج، نوافذ للمراجعة لمحاولة قضاء حاجات الناس، وحبال غسيل منتشرة في كل متر على جدران المدرسة. حالة بؤس وعذاب لا توصف. وسط كل هذه الأجواء بُنيت ذاكرة الأطفال عن المدرسة بأنها فوضى بلا حدود.

كيف بالله عليكم، حتى لو انتهت الحرب تمامًا وغادر الناس المدارس وأعيدت صيانة المباني، من سيقنع هؤلاء الأطفال بأن يحبوا المدرسة وأن يصطفوا في طابورها الصباحي؟ لا يسعني سوى أن أقول: وا مصيبتاه! أعيدوا لنا أطفالنا، أعيدوا لهم ألعابهم التي نسوها أو لم يعودوا يعلمون أن في الدنيا شيئًا اسمه "ألعاب أطفال." حتى إن كثيرًا من الأطفال لو أعطيته إصبع موز قد يأكله مباشرة دون تقشير، لأنه لم يره حينما كبر.

حفيدتي الصغيرة، عمرها أربع سنوات، كانت تشاهد فيديو لمركز تجاري كبير به العربات والسلال الخاصة بالمشترين، فسألتني: "ما هذه العربات وما هذا المكان؟

هل هنا يوزّعون الطعام؟" فأخذت أشرح لها عن المكان وكأنه من كوكب آخر.

كل يوم نكتشف حجم الأشياء التي لا يعرفها الأطفال، لم يشاهدوها ولم يختبروها. لم يروا مدينة ملاهٍ، ولم يذهبوا إلى المتنزهات التي دُمّرت جميعها. حتى أبسط الأشياء كالثلج مثلًا أو الآيس كريم، ولم يذهبوا في رحلة إلى شاطئ البحر الممتد على طول قطاع غزة.

تحوّل الشاطئ إلى خيام للنازحين، وكثيرًا ما تغرقهم وتجرفهم الأمواج بخيامهم وكل ما تحتويه من فرش وملابس وأوانٍ. حتى البحر، أجمل ما في غزة، أصبح في ذاكرة الأطفال مكانًا مرعبًا قد يقتلهم ويدمرهم في أية لحظة. لست واثقًا تمامًا بأنه في حال انتهت الحرب وكبر هؤلاء الأطفال الذين نزحوا إلى الشواطئ، أنهم سيعودون إلى البحر مرة ثانية. سيظل البحر بالنسبة لهم مركز تهديد ومكانًا مرعبًا وغير مريح، يحمل ذكريات مغايرة عن باقي البشر.

يبدو أننا بعد انتهاء الحرب بحاجة إلى إعمار نفسي قبل إعمار المباني. يجب على العالم أن يكثّف جهوده من أجل إعادة بناء الإنسان في غزة، سواء أكان طفلًا أم كبيرًا؛ لأن هذا الإنسان هو من سيحافظ على ما سيتم من إعمار. كلما نظرت بعمق إلى تفاصيل ما جرى خلال الحرب، أدركت حجم مأساتنا ومصيبتنا التي وقعنا فيها. أصبح كل شيء حولنا مشكلة، وحتى الأشياء التي اعتقدت أنها ليست مشكلة، حينما فكرت بها قليلًا، اكتشفت أنها المشكلة الأكبر.

نحن غارقون في محيط من المشاكل التي تتوالد ولا تنتهي، وعلى كافة الصعد: السياسية والاجتماعية والدينية. فعلًا، نحن بحاجة إلى كل طاقات العالم لكي تتمكن من إعادة غزة إلى المسار الصحيح، ونستطيع أن نعيش كباقي البشر حياة كريمة، وننقذ ما يمكن إنقاذه من مستقبل أبنائنا الذين هم أغلى ما نملك ونعيش من أجلهم.

وبرغم كل شيء، لا بد أن يبقى الحلم، وأن نحمي أطفالنا؛ لأنهم المستقبل وأحلامنا القادمة.

في الليل، حين يهدأ كل شيء ويختفي صخب النهار المزدحم، يبقى الطفل مستيقظًا بين الركام، بين أطلال المدينة، بين أطياف ما كان يُسمّى حيًّا، يحاول أن يجد مكانًا للحلم. هناك، في قلب الخراب، تتسلل المخاوف إلى روحه كحبال مشدودة تحيط به من كل جانب. لكنه يصرّ على أن يحلم... أن يخلق عالمًا صغيرًا، ولو كان محدودًا، ولو كان مجرد لحظة هروب قصيرة من واقع يلتهم الطفولة. تصبح الوسادة تحت رأسه مسرحًا للخيال. كل شيء صامت حوله، كل شيء مكسور، لكن في عقله... هناك نافذة صغيرة مفتوحة على عالم آخر. يتحدث مع نفسه بصوت خافت، كما لو كان يخاطب ظله:

"هل سأرى البحر كما كنت أحلم؟ هل سأركض على الشاطئ كما في القصص؟ هل سأضحك ضحكة كاملة، دون خوف؟"

ويظل صامتًا؛ لأنه يعرف أن الصوت قد يوقظ الخوف أو يذكّره بالغياب، بالأصدقاء الذين لم يعودوا، وبالأحلام التي هُدمت قبل أن تولد.

أحلامه ليست كبيرة؛ ليست عن سيارات أو ألعاب حديثة، ليست عن مدينة بعيدة أو قصر فخم. أحلامه عن قطعة خبز دافئة، عن كلب صغير يركض خلف كرة، عن شاطئ البحر الذي لم يعد كما كان، عن ملعب صغير يكفي للضحك، وعن لعبة بسيطة يعرف معناها، شيئًا لم يعرفه منذ سنوات. كل يوم تتلاشى بعض هذه الأحلام، لكنها لا تموت. رغم الركام، ورغم الخراب، ورغم الحرب، يصرّ الطفل على أن يحلم.

في النهار، تتحول الأحلام الصغيرة إلى مسؤوليات كبيرة. الطفل يحمل الماء، يقف في طوابير طويلة، يحمل الخبز، يحمل الحطب، يساعد إخوتَه الأصغر سنًّا، ويحاول أن يكون موجودًا في كل مكان. أحيانًا يضحك، وأحيانًا يبتسم، لكنه يعرف

أن الضحكة هنا صعبة، والابتسامة نادرة، والهدوء شيء لا يمكنه أن يستمتع به. ومع ذلك، يحاول أن يبقى إنسانًا، يحاول أن يعيش، ويحاول أن يختلق لحظات صغيرة من الفرح.

اللعب... أصبح شيئًا بعيدًا جدًا. كرة صغيرة على الأرض تصبح خطرة، لعبة بسيطة تصبح مغامرة لا يمكن توقع نتائجها. حتى لحظة واحدة من المرح تتطلب حذرًا: التفكير في المكان، التفكير في الأشخاص، التفكير في الصواريخ التي قد تسقط فوق رؤوسهم. ومع ذلك، يحاول الطفل أحيانًا أن يبتكر لعبته الخاصة، حتى لو كانت مجرد حجر أو عصا يحاكي بها كرة أو دمية؛ يحاول أن يضحك ولو للحظة، يحاول أن يصنع ذكرياته الخاصة بعيدًا عن الموت والخراب.

المدرسة... مكان آخر اختفت فيه الطفولة. المدرسة لم تعد مكانًا للتعليم، بل مأوى مزدحمًا بالنازحين، بالضجيج، بالحمامات القذرة، بالطوابير الطويلة، وبالمعارك اليومية للحصول على أبسط الأشياء. كل يوم هناك، ينشأ الطفل على فكرة خاطئة عن المدرسة كمساحة للفوضى والمعاناة، لا للتعلم أو اللعب. ومع ذلك، هناك دائمًا لحظة صغيرة، زاوية مهملة، حيث يختبئ الطفل للحظة صمت، يلمس كتابًا، يحاول أن يتذكر أن هناك ما يُسمّى "معرفة."

الأطفال هنا يختبرون الموت يوميًا، ويرون الدمار حولهم، ويشاهدون أصدقاءهم وأقاربهم يغادرون الحياة فجأة، دون سابق إنذار. لكنهم أيضًا يشهدون لحظات صغيرة من الإنسانية: قطعة خبز يتقاسمونها، ابتسامة صامتة بين الأطفال، مساعدة صغيرة لأحدهم أثناء الوقوف في الطابور. هذه اللحظات الصغيرة تصبح أحلامًا ملموسة، وشعاعًا من الضوء في عالم مظلم.

حتى أحلام الطعام... صارت شيئًا مقدسًا. كل وجبة، كل لقمة، كل طعم له قيمته. الطفل هنا يعرف معنى الصبر، معنى الانتظار، معنى القلق، لكنه أيضًا يعرف قيمة المشاركة، وقيمة أن يكون هناك شخص يبتسم لك أثناء تقديم شيء صغير؛ شيء يذكرك بأن الحياة لم تنتهِ بعد.

البحر... حتى البحر لم يعد كما كان. المكان الذي كان يرمز للحرية واللعب أصبح الآن مكانًا للخوف. الأمواج تحمل خطرًا، والشاطئ مغطى بالخيام والركام، والطفل الذي حلم بأن يركض على الرمال يكتشف أن البحر صار شاهدًا على الخراب والموت. ومع ذلك، هناك صراع داخلي، ورغبة قوية في العودة، وفي استعادة لحظة طفولة ضائعة، وفي أن يقول لنفسه: "أنا ما زلت هنا... وسأظل أحلم."

الأحلام الصغيرة هنا ليست مجرد هروب، بل هي انتفاضة ضد الخراب، ومقاومة صامتة. كل ضحكة، كل ابتسامة، كل لحظة فرح صغيرة، هي صرخة تقول: "أنا موجود... أنا لم أختفِ بعد... ما زلت طفلًا، رغم كل شيء."

حتى النوم... أصبح حلمًا صعبًا، مليئًا بالكوابيس والذكريات المؤلمة، لكن الطفل يتعلم أن يجد السلام ولو للحظة. يتخيل نفسه في مكان آمن، يلمس شاطئًا، يركض، يضحك، يتناول مُثلجاته، كل شيء بسيط، لكنه كل ما تبقى من طفولته. في الركام، بين أنقاض المدينة، في طوابير الماء والخبز، تحت الانفجارات والصرخات، تظل أحلام الأطفال تنمو. رغم كل شيء، هناك بقايا من الطفولة، هناك ضحكات صغيرة، هناك أمل. الطفل هنا أصبح مُعلمًا للصمود، يعلّمنا كيف يمكن للإنسان أن يعيش رغم الألم، وكيف يمكن للحياة أن تستمر رغم كل شيء. الأطفال هنا... هم المستقبل، هم الأمل، هم من سيحملون ذاكرة المدينة، والضحكة المفقودة، واللعب الذي لم يحدث بعد. هم الجذور الصامدة تحت الركام، يحتاجون إلى من يسقيهم، إلى من يُعيد لهم طفولتهم، ليصبحوا أشخاصًا قادرين على إعادة بناء ما دمّرته الحرب.

تحت الركام، هناك أحلام، هناك ضحكات مخفية، هناك أمل صامد، هناك أطفال غزة... صامدون رغم كل شيء، يحملون العالم على أكتافهم الصغيرة، ويحرسون ما تبقى من الإنسانية بصمتهم، بقوتهم، وبراءة لا تموت.

# "زكيم".. مصاصو الدماء

## وألعاب الجوع

من بين كل مراكز المساعدات المنتشرة في جنوب ووسط وشمال قطاع غزة، "زكيم" هي التي تعنيني بالحديث عنها؛ لأن أبنائي كانوا يذهبون إليها. وهي المنطقة الحدودية الواقعة في أقصى شمال قطاع غزة والأقرب إلى منزلنا. تمر من خلالها شاحنات المساعدات المحمَّلة بالدقيق أو طرود المساعدات (الكابونات)، وتتحرك وفق أوامر الجيش الإسرائيلي بدقة صارمة: متى تسلك طريقًا معيّنًا، متى تتحرك، متى تتوقف، متى يُمنَع منعًا باتًّا أن تتوقف، متى تسرع دون توقُّف حتى مسافة معينة، ومتى تبطئ.

كل ذلك يُراقَب عن كثب بطائرات "الكوادكابتر" الجاهزة لإطلاق النار في أي لحظة، ودبابات المدفعية المستعدة لإطلاق قذائفها، والقناصة المتمركزين لاقتناص من يثير اهتمامهم، أو حتى من لا يثيره. كل آلات القتل تلك ليست لتنظيم توزيع المساعدات، بل لأهداف أخرى تُعلن في كل صباح؛ فالشاحنات عادةً ما تصل ليلًا، مصحوبة بمذبحة لا تقل عن مئة شهيد، مع إصابة المئات الآخرين. وفي كل ليلة، تزداد قائمة الشهداء، وكأن الجيش يضع هدفًا بعدد لا يقل عن مئة شخص، بينما تودع غزة شهداءها من مناطق توزيع المساعدات التي باتت تُعرف باسم "مصائد الموت."

كل يوم، تُضاف إلى القائمة أرامل جدد، أيتام جدد، مصابون جدد، وتُبتر أطراف ضحايا جدد. قلوب تنفطر، وعائلات تتدمّر بفقدان معيلها. كل ذلك من أجل أغلى شيء خلال المجاعة: "كيس الدقيق." الحصول عليه يعني النجاة لك ولعائلتك، وفشلك في المحاولة يعني أن حياتك وحياة عائلتك تقترب أكثر من الموت.

"أوقفوا أصوات سيارات الإسعاف." هذا أقصى ما تمنيته في تلك الليلة التي ذهب فيها ولداي (فادي وثائر) إلى منطقة المساعدات الواقعة في أقصى شمال قطاع غزة، والمسماة "زكيم."

كانت تلك الليلة هي الأصعب والأشد في أحداثها؛ إذ لم تتوقف أصوات صفارات الإسعاف طوال الليل. كانت هذه المرة الأولى التي يكسر فيها ولداي كلامي ويذهبان إلى منطقة المساعدات في زكيم، التي حذرتهما مرارًا وتكرارًا من الذهاب إليها. يا الله، كاد قلبي يتوقف من شدة خوفي عليهما.

كم كرهتُ الجوال ليلتها! طوال الليل نظرتُ إلى الهاتف ألف مرة، والخوف يتملكني من أن يتصل أحدهم بي؛ لأنني أعلم أن كل من يذهب إلى مناطق المساعدات يترك هاتفه في البيت خوفًا من أن يُسرق بسبب الزحام وتدافع مئات الآلاف في تلك المنطقة الضيقة المسماة "زكيم."

ولا يوجد إلا معنى واحد لاتصال أحدهم بك في منتصف الليل: أن يبلغك خبرًا لا تتمنى أن يسمعه ألدُّ أعدائك. طوال الليل لم يتوقف سخطي وغضبي على كل الدنيا، لم أترك شتيمة إلا وقلتها في حق كل من يخطر ببالي، حتى ولداي لم يسلما من الشتائم.

كانت آلاف المشاهد تتقافز إلى خيالي، والأفكار السيئة لا تكف عن الدوران في رأسي، تنخر فيه بلا توقف. هل ما زالا على قيد الحياة؟ هل أُصيبا؟ إذا كانا سالمين، فلماذا تأخرا كل هذا الوقت؟ أصوات الإسعاف تتعالى كلما طال الليل وزاد السكون. تمنيتُ لو لم يكن منزلنا على الطريق المؤدي لمستشفى الشفاء، حتى لا أضطر لسماع صوت سيارات الإسعاف.

وفي بعض الأحيان كنت أسمع أصوات أشخاص قادمين على وسائل نقل بسيطة، مثل سيارة أو "توكتوك" أو عربة (كارّة) يسحبها حمار، يصرخون: "افتح الطريق، افتح، افتح، معنا مصاب، معنا مصاب،" أو يصرخون بكلمات غير مفهومة، ولكنها كانت تعض قلبي وتأخذني الظنون: قد يكون أبنائي في إحداها.

لم أعد أتحمل البقاء أكثر داخل المنزل، لا بد أن أخرج وأقف في الشارع. وفعلًا خرجت وتفاجأت حين وجدت الكثير من الجيران على طول الطريق يقفون في الشارع ينتظرون عودة أبنائهم. أخذت أتحدث مع الجيران، وأخذوا يسألونني: "هل لديك أخبار؟" جميعهم قلقون، متوترون، خائفون.

وبعد قليل ظهر ثلاثة شباب عائدين من "زكيم"، ملابسهم مغطاة بالغبار ووجوههم أيضًا، ولكنهم بدون دقيق، لا يحملون سوى حقائبهم وأكياسهم الفارغة. سألتهم: "كيف هي الأوضاع هناك؟" فأجابوني: "موت يا حج، موت! الشهداء والمصابون بالمئات في كل مكان بزكيم، وسيارات الإسعاف لا تكفي لكل الأعداد الملقاة على الأرض." سألوني: "ابنك هناك؟" أجبت: "نعم، ربنا يرجعه سالمًا، ادعُ له يا حج." إجابتهم زادت النار في قلبي اشتعالًا. ماذا أفعل؟ هل أذهب إلى هناك وأبحث عن ابني؟ وأين أبحث بين كل هذا الطوفان من البشر؟ يبدو أن كل شباب غزة في منطقة زكيم، وليس الشباب فقط، بل العديد من النساء، معظمهن فقدن أزواجهن خلال الحرب وأصبحن المعيلات للعائلة.

حملٌ تنوء الجبال بحمله في هذه الحرب، وكان بعضهن أيضًا عائدات في منتصف الليل خاويات الوفاض. أكثر ما عذبني في هذه الحرب هو عذاب النساء وشقاؤهن وموت الأطفال.

كانت هذه الليلة السوداء مختلفة بسوادها عن باقي ليالي الحرب، وكأن كل غزة تقف على جنبات الطريق؛ الطريق التي لا تخلو من سيارات الإسعاف ذهابًا وإيابًا، ولا تتوقف عن نقل الشهداء والجرحى. حركة الناس لا تهدأ، كلٌّ يريد أن يطمئن على أبنائه.

إحساس بالعجز تملكني، لا أعلم ماذا أفعل، لا شيء أملكه سوى الانتظار، ثم الانتظار، ثم الانتظار، مع هذا القلب المتعب والأفكار المتضاربة والغضب من كل

شيء. تعبت من الوقوف في الشارع بلا معنى، وتذكرت جارنا "أحمد" قبل أيام حينما كان يقف في الشارع هكذا بلا هدف، مجرد إنسان يقف على قارعة الطريق، ولم يكن يعلم أن أخاه ذهب إلى زكيم، ووقعت عيناه صدفة على "توكتوك" ينقل ثلاثة شهداء لمستشفى الشفاء، وكان أخوه يوسف بينهم، فأخذ يصرخ وخرجت كل عائلته تصرخ معه، وخرجت كل الحارة تشد من أزرهم وتواسيهم بمصابهم الذي لم يخطر ببال أحد؛ مجرد نظرة قلبت الدنيا رأسًا على عقب.

تعبت من الوقوف في الشارع وعدت إلى منزلي، جلست على كرسي الخيزران الخاص بي وقررت أن أتصل بابنتي؛ فزوجها ذهب مع فادي وثائر، ومن الممكن أن يكون قد اتصل بها وطمأنها عن أحوالهم. اتصلت بها، فعاجلتني بالسؤال: "هل أتتك أخبار عن فادي وثائر وعوض؟" فأجبتها: "أنا اتصلت لكي أسألك عنهم." فأجابت: "كنت سأتصل بك لأطمئن، لو لم تتصل."

أقفلت الخط دون أن يهدأ لي بال، حتى أنني لا أشعر بالنعاس، كل حواسي متجهة صوب الشمال. متى سيبزغ الفجر وتنتهي هذه الليلة الملعونة التي يبدو أن لا نهاية لها؟ أخذت أفكر بمن أتصل، قد يكون لديه أخبار، فاتصلت بـ "عبد الله" صديق ثائر: "آه يا عبد الله، عندك أخبار عن فادي وثائر؟" فأجابني: "لا والله، أين هما؟" فقلت: "ذهبا إلى زكيم." أجاب مندهشًا: "ماذا؟ الليلة؟ هناك مذابح في زكيم، هكذا قرأت في الأخبار على مواقع التواصل ومن العائدين من هناك، ربنا يسلمهم." "ويسلمك يا عبد الله." "ابقَ طمني عليهم يا عم أبو فادي لما يرجعوا بالسلامة، ولا يهمك."

كانت الدقائق والساعات تمر بطيئة، كل دقيقة تأكل جزءًا من قلبي وروحي. بت لا أعرف ماذا أفعل، يبدو أن الشارع أكثر طمأنينة من المنزل، رغم أن زوجتي وابني وابنتي كانوا يطمئنونني ويهدئون من توتري طوال الوقت.

ذهبت إلى الشارع ووقفت أنتظر العائدين وعدت أسألهم: "ما الأخبار هناك؟" فأجابوني: "لم يبقَ أحد، كل الموجودين في زكيم عادوا." "ماذا يعني هذا؟" كاد قلبي أن يتوقف من شدة الخوف والقلق على أبنائي، حتى اتصلت بي ابنتي وأخبرتني أن زوجها عوض قد عاد، ولكنه لم يحضر دقيقًا، فنهرتها قائلًا: "لا يهم ألا يحضر، المهم سلامته."

إلى الآن ولداي لم يعودا، وها هي الشمس قد بزغت. سألتها: "هل رأيتهما هناك؟" فأجابتني أنهم افترقوا هناك، ومنذ وصولهما لم يشاهدهما إلى الآن. ذهبتُ إلى المنزل لأخبر عائلتي بسلامة عوض، وقلبي ودمي يغليان كالبركان. دخلت المنزل هائجًا، أخبرت زوجتي أن الجميع عادوا إلا أبنائي. أصابت البيت حالة وجوم، وهممتُ بالذهاب إلى المستشفى لأسأل عنهم، وقبل أن أغادر كان فادي عائدًا، حاملًا كيسًا من الدقيق بصعوبة. تعرفتُ عليه من حالته الرثّة، ووجهه ولون ثيابه التي صُبغت كلها باللون الرمادي؛ وهو لون عبارة عن مزيج ما بين التراب والغبار والدقيق.

كان باب المنزل مفتوحًا، وفجأة وجدته أمامي. أنزل كيس الدقيق عن كتفه وألقاه أرضًا، وكاد أن يسقط معه من شدة التعب، ولكنني عاجلته بحضن كبير، أخذت أقبله وأحضنه بقوة، كأنه كُتبت له حياة جديدة ونجا من موت محتّم؛ موت ثمنه كيس دقيق.

أجلسته على المقعد وسألته عن أخيه، فأجابني بصوت لاهث ومتقطع: "لم أره." فأجبته بدهشة: "ألم يكن معك أخوك؟" فقال: "بلى، في بداية دخول الشاحنات، لكن عندما بدأنا نجري تجاهها انفصل كل منا عن الآخر. فحينما تأتي الشاحنات يا والدي، يصل الغبار إلى عنان السماء نتيجة الدقيق الذي يُبعثر كل يوم تحت عجلاتها، وكثير منا يموت دهسًا تحتها." سألته: "هل بقي أحد هناك؟" أجاب: "لا أعتقد يا أبي، لقد عاد الجميع."

ساد الصمت كل أرجاء المنزل، وبتنا متيقنين أنه حدث أمر ما مع ثائر، فمن غير المنطقي أن يتأخر كل هذا الوقت. أردنا أن نذهب إلى مستشفى الشفاء لنتفقد الجرحى ونسأل عنه، ولكن فادي طلب منا أن ننتظر قليلًا.

جلس فادي يحدثنا عن تلك الليلة، وكيف أن جيش الاحتلال كان يتعمد قتل وإصابة أكبر عدد من طالبي المساعدات، وأنه كاد أن يموت مرتين: مرة بالاختناق من شدة التزاحم، عندما اقترب من الشاحنة وأراد أن يلتقط كيسًا من الدقيق، فزاد الضغط عليه من قِبل الحشود، وأصبح بين نارين: إما أن يأخذ كيس الدقيق ويموت خنقًا أو تحت عجلات الشاحنة، وإما أن يترك الكيس ويعود إلى الخلف ليحصل على قليل من الهواء ويستطيع التنفس.

وفعلًا اتخذ القرار بالعودة إلى الخلف والتخلي عن كيس الدقيق، وذهب بعيدًا عن الحشود المكتظة، وجلس ليستريح قليلًا، وأخذ يفكر في أطفاله الذين لم تمتلئ بطونهم منذ أسابيع. وقرر -رغم كل من تساقطوا أمامه من شهداء وجرحى- إما الموت أو العودة بما يملأ بطون أطفاله.

وأثناء تفكيره قرر أن يتجه إلى الجهة الثانية للشاحنة المقابلة لشارع البحر، وهي الجهة الممنوعة بأمر من قوات الجيش؛ ولا يستطيع أحد الذهاب إليها لأن الطائرات المسيّرة (الكوادكابتر) تستهدف كل من يقترب من ذلك الاتجاه وتقضي عليه.

نهض من مجلسه مودعًا الدنيا، وعازمًا على المغامرة بحياته من أجل رغيف الخبز. انطلق كالسهم بالاتجاه الآخر، وقفز على الشاحنة، وأخذ كيس دقيق وعاد راكضًا به، ينتظر الرصاصات التي ستخترق جسده وتلقيه جثة بجانب العديد من الجثث الملقاة في المكان، والتي كاد أحيانًا أن يتعثر بها. كانت أمتارًا قليلة هي الفاصلة بين الحياة والموت، شعر بتلك الأمتار كأنها آلاف الأميال، بل كأنها عمره بالكامل.

لم يكن يفكر بشيء سوى أطفاله الذين ينتظرون رغيف الموت الملقى على ظهره. وهو يركض به، لم يصحُ من تلك الحالة إلا حينما وجد بعض الشبان من طالبي المساعدات يقولون له: "حمدًا على سلامتك، هل أنت مجنون لتذهب إلى الجهة الأخرى؟ هل حياتك رخيصة لهذه الدرجة لتضحّي بها؟" فأجابهم: "بل حياة أبنائي غالية لهذه الدرجة لأحافظ عليها."

انتهت قصته حتى دق باب المنزل، فركضتُ لأفتحه، وأخيرًا عاد ثائر بحالة أكثر رثاثة من فادي، ولكن دون كيس الدقيق. وبعد أن احتضنته وقبلته، تمعنتُ بالنظر إليه؛ كان واجمًا ولونه باهتًا، وكأنه ميت. وبمجرد دخوله المنزل سأل عن فادي، ولكننا سألناه: "ما الذي أخرك؟" فأجاب: "أين فادي؟" فقلنا له: "إنه في الداخل" فذهب إلى أخيه واحتضنه وأخذ يقبله ويبكي، وأخذنا نهدئ من روعه ونخبره: "ماذا جرى لك؟ حمدًا على سلامتك."

فأخبرنا أن أحد الأشخاص قال له إنه شاهد فادي ضمن مئات المصابين في تلك الليلة ملقى على الأرض ولا يجد من يسعفه، فعاد يفتش عن أخيه بين الجثث والمصابين، وظل ما يقارب الساعة يبحث عنه دون جدوى. ومن شدة التعب قرر العودة إلى المنزل، وبعد أن ابتعد عن المكان خمسين مترًا، قال لنفسه: "لقد تركت بعض المصابين والجثث في المناطق المتقدمة قرب الجيش، لابد أن أعود حتى أتأكد أن أخي ليس من بينهم، حتى لو متّ هناك."

عاد ثائر بخطى متثاقلة واستسلم للخوف الذي دفعه للمضي نحو الأمكنة التي كانت فيها الفوضى أعنف. المشهد هناك كان أشد قسوة مما تصوّر: مئات الأجساد مرمية كأنها سقطت من عالم آخر، بعضهم جالسون على الأرض، وبعضهم راقدون بلا حراك، ووجوه كثيرة لم تعد تُعرف ملامحها من شدة ما غطاها من غبار وطحين لونه أبيض باهت. كان الطحين قد صبغهم حتى بدت أجساد الصغار كالتماثيل؛ عيون مغلقة وأيدٍ صغيرة ممدودة بلا حركة، لا تتجاوز أعمار بعضهم

أربعة عشر عامًا، وكأنهم أشباح تترنح هنا وهناك بين الركام.

تقدم ثائر بين الجثث وهو ينادي بصوت مبحوح: "فادي! فادي!"، يلمس أكتافًا وأذرعًا، يرفع رؤوسًا فتظهر وجوه غارقة في الطحين، شعرٌ كالتراب، وملابسٌ تغطيها طبقة رمادية بيضاء لا تُميز بين لون القتيل والمكان. رأى شابًا بدا وكأنه يشبه فادي من بعيد؛ توقّف قلبه للحظة، اندفع نحوه، ركع بجانبه وهو يرتجف، ورفع الغبار عن وجهه بيدين ترتعشان. كان الوجه شاحبًا هادئًا، العينان مغلقتان، والكفّان باردتين. نادى عليه باسم أخيه بصوتٍ تحطمه الرجفة، ولم يأتِ أي رد. ظلّ يلمسه وينادي ويبحث عن علامة تميّزه — قطعة قماش، ندبة، رائحة حطة قديمة — لكن لا شيء يؤكد أنه فادي.

حين أدرك أن هذا ليس أخاه، انفجرت داخل ثائر موجة من الصراخ والبكاء والضحكات المقهورة، ووقفت حوله أصوات أخرى مماثلة؛ أناس يقتربون ثم يبتعدون، وكل واحدٍ يبحث عن وجهٍ يحنُّ إليه. كان منظر الأطفال الأصغر سنًا يوجعُ الأعماق: أجساد صغيرة ملفوفة بالطحين، كأن الحرب قد أسكرتها ثم طمست ملامحها، لا حركة تذكر سوى نَفَسٍ خافت هنا أو تنهيدة بعيدة هناك. لم تكن هناك لافتات للفرق الطبية في تلك اللحظة، ولا مكان للنداء، فقط صمتٌ ثقيل يَخنق المكان بين صفير المُسيّرات وبقع الضوء المتقطعة.

واصل ثائر التفتيش حتى فقد إحساسه بالزمن، كل جسم كان يمكن أن يكون أخاه لوهلة، وكل وهمٍ ينهار ويتركه أكثر ضعفًا. في النهاية عاد وهو يحمل صورة الحزن راسخة في عينيه: لا يقين، ولا راحة، إلا عزيمةٍ جامدةٍ على ألا يترك هناك أحدًا لم يُسأل عنه. ولهذا السبب تأخرت عودة ثائر كثيرًا، حتى كان آخر من عاد في تلك الليلة من الأحياء. ويومها قرر ألا يعود مرة أخرى إلى زكيم، وأن حياته أثمن من أن تفنى مقابل كيس من الدقيق.

احتضنتُ أبنائي وقبلتهم، ثم عدتُ لأجلس على كرسي الخيزران الذي تعودت الجلوس عليه، ولكن دون أن تكون لدي القدرة على التفكير أو الغضب أو الخوف أو الحزن أو أي مشاعر. كنتُ متعبًا مثلهم أو أكثر، كل قواي خائرة، فقط أريد أن أرتاح قليلًا من كل هذا الجنون.

# ضحكة طفل بالدنيا

لم تترك الحرب شيئًا في غزة إلا وتركت آثارها عليه، سواء أكان حجرًا أم بشرًا، هواءً أم ماءً، وحتى أرواح الناس وتفكيرهم. وكلما مرّت الأيام، بتنا نكتشف الجديد من الدمار الذي خلّفته آلة الحرب، ولكنني أعتقد أن أكبر جريمة ارتُكبت في هذه الحرب كانت بحق الأطفال؛ فالأطفال هم الأكثر براءة وطهرًا، ولا ذنب لهم فيما يجري، وكل القوانين والمواثيق الدولية والإنسانية دومًا تُجنّب الأطفال ويلات الحروب والنزاعات.

لكن في هذه الحرب، استشهد منهم ما يقارب عشرين ألف طفل، وجُرح منهم عشرات الآلاف. إذا كانت الزهور هي من تزين الحدائق، فالأطفال هم من يزينون البيوت ويملؤونها بالحركة والحياة، ويجعلون قلوبنا أكثر نقاءً وأرواحنا أشد صفاءً؛ فهم الضحكة البريئة التي نتنفسها وتنتقل مباشرة إلى شفاهنا.

ليس هذا ما أود أن أشرحه في هذا المقال، ولكن ما أود إخباركم به هو التغيرات التي طرأت على أطفال غزة جميعهم؛ فلقد تضاعفت أعمارهم، فمن بلغ من العمر خمس سنوات أصبح عمره العقلي والجسدي عشر سنوات، فتجده يتحدث معك كرجل، حتى إنه يحاول أن يُضخّم صوته ويمد الأحرف عند الكلام ليُظهر خشونته. فلا تتعجبوا إن قلت لكم إن الأطفال في سن الخامسة أو السادسة يكسرون الأخشاب بالمطارق، وأحيانًا يحملون حجرًا ضعف وزنهم ويضربون به الأخشاب حتى يحطموها إلى قطع صغيرة نستخدمها لإشعال النيران.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل أصبح توفير المياه العذبة التي تأتي في الصباح الباكر هو الواجب اليومي للأطفال في المنازل، لكي يملؤوا الأوعية ويعيدوها إلى منازلهم. إلى الآن لا أعرف كيف لطفل في السادسة أن يصبح مدركًا لواجباته ولحالة الحرب التي نعيشها بكل أبعادها، وكيف استطاع أن يُنحّي طفولته جانبًا، أو يؤجلها إلى وقت لاحق من حياة قادمة، قد يستطيع فيها يومًا ما أن يلهو مع أقرانه من الأطفال، ويلعبوا "طاق طاق طاقية." أو "الاستغماية."

أما الآن، فإنهم يخافون أن يلعبوا تلك اللعبة؛ لاضطرارهم لربط المنديل على أعينهم، فيستفيقون على صوت صاروخ يدمر أحياء بأكملها في أحيان كثيرة، أو يجري أحدهم هاربًا من صديقه فيتعثر بلغم من مخلفات الحرب.

منذ ما يقارب ثلاث سنوات لم يذهب الأطفال للمدارس؛ لقد جُهّل جيل بأكمله. طوال الوقت نسمع أن المدارس سيعاد فتحها، ولا يحدث شيء. في أحيان كثيرة أفكر في أحفادي؛ كيف سيستطيعون تعويض ما فاتهم من سنوات الدراسة؟ فمن كان في عامه الدراسي الثالث، لا يزال في عامه الثالث، بل قد يكون نسي ما تعلمه في سنواته الأولى.

حديث الأطفال أصبح مختلفًا، ولغتهم تدهشك في أحيان كثيرة؛ فلديهم سخرية الكبار وذكاء غير متوقع. فمثلًا، فرغت الأسواق لشهور من الدجاج، وحينما طهونا دجاجًا لأول مرة، جلس حفيدي ذو السبع سنوات أمام والده وقال له: "يا إلهي، الآن تمنّون علينا بأنكم أحضرتم دجاجًا، وكأنه لم يحضر أحد دجاجًا غيرنا؟" ولم نسلم من لسانه حين أضاف: " أرجو فقط ألا تكون بيضة ديك." وظل هكذا يلمح بالكلام حتى أسكته والده بقطعة لحم كبيرة وضعها في فمه.

الأطفال هم المستقبل. كثيرًا ما أفكر كيف لهؤلاء الأطفال أن يندمجوا في مجتمعاتهم، وكيف ستكون تأثيرات الحرب عليهم في المستقبل؟ هل ستتغير شخصياتهم إلى الأفضل أم سيصبحون أكثر عنفًا وارتباكًا؟ إذا كانوا قد تحولوا إلى رجال وهم بهذا العمر، فكيف سيكون حالهم وهم في سن العشرين أو الثلاثين؟ وهل سيصغون لأحد، أم سيكون التمرد والعصيان هو ديدنهم؟

قبل الحرب، كنت نادرًا ما أنظر إلى طفل إلا وأنا مبتسم، وفورًا يبادلني الابتسامة بابتسامة أجمل منها. أما الآن، فحينما أنظر لطفل مبتسمًا، في الغالب لا أرى سوى العبوس على وجهه، وكأن لسان حالهم يقول: "ما الذي يضحكك؟" وكأن

همـوم الكـون كلهـا أُلقيـت فـوق أكتافهـم.

لـم تعـد أحلام الأطفـال كمـا كانـت؛ فالسـؤال القديـم: "مـاذا تريـد أن تصبـح عندمـا تكبـر؟" فقـد معنـاه، وكأنـه سـؤال ينتمـي لعالـمٍ آخـر لا يشـبه عالمهـم الآن. لـم نعـد نسـمع إجابـات مـن نـوع "طبيـب،" أو "مهنـدس،" أو "معلـم." تلـك الأحلام تبخّـرت مـع أول صاروخ، وتحوّلـت إلـى شـيء بعيـد... بعيـد لدرجـة أن الطفـل نفسـه لـم يعـد يـراه.
تغيـرت أيضًـا أحلام الكبار؛ فلـم يعـد التفكيـر فـي المشـاريع، أو السـفر، أو المسـتقبل المهنـي ممكنًـا، وأصبـح السـؤال عـن النجـاة اليوميـة والقـدر الـذي يحفـظ الأسـرة هـو الأسـاس. يـرى الآبـاء والأمهـات أن أحلامهـم لـم تعـد حقيقيـة، وأن طموحاتهـم الشـخصية باتـت صغيـرة أمـام مسـؤولياتهم الجديـدة. السـؤال عـن المسـتقبل أصبـح ثقـيلاً علـى الطرفيـن: الأطفـال يشـعرون بالضغـط المبكـر، والكبـار يشـعرون بالعجـز عـن تقديـم أي أمـل ملمـوس. كل شـيء أصبـح مرهونًـا بالقـدرة علـى البقـاء، والحيـاة أصبحـت لعبـة صعبـة، حيـث يختلـط الخـوف مـع الأمـل، والخيـال مـع الواقـع المريـر، ويصبـح الحلـم حقًـا صعـب المنـال، لكنـه مـا زال يهمـس فـي الزوايـا الصامتـة مـن القلـب.

لا يحلـم أطفـال الحـرب اليـوم بالمهـن، بـل بالنجـاة. أقصـى مـا يتمنـاه أحدهـم أن ينـام ليلـة واحـدة بلا خـوف، أو أن يجـد بيتًـا لـه بـاب يمكـن أن يُغلـق، وسـقف لا يهتـزّ. صـارت أحلامهـم صغيـرة... بحجـم ظلّهـم حيـن يقفـون فـي الضـوء: لعبـة لـم تنكسـر، حقيبـة مدرسـة لـم تختـفِ تحـت الـركام، وشـارع يمكـن السـير فيـه بلا جثـث وبلا ركام.

هـؤلاء هـم الجيـل القـادم، جيـل لا نعـرف ملامحـه بعـد. جيـل يُفتـرض أن يكـون امتـدادًا لنـا، لكنـه نشـأ علـى أصـوات ليسـت بشـرية: صفـارات، وطائـرات، وانفجـارات. كيـف سـيكون شـكل هـذا الجيـل؟ ومـاذا سيسـعى ليحققـه؟ هـل سـيبني مـا هُـدم... أم سـيكبر وهـو يحمـل فـي داخلـه هشاشـة لا تُـرى؟

كل ما نعرفه أن الحرب سرقت منهم طفولتهم، وتركت لهم فراغًا كبيرًا يسمّونه مستقبلًا. جيل وُلد ليحلم... لكنه يتعلم الآن كيف ينجو قبل أن يتعلم كيف يحلم. في الماضي، كانت الشوارع والأزقة تضج بالأطفال الذين يلعبون أمام منازلهم وفي الساحات، وكثيرًا ما كان الكبار يغضبون منهم ويطردونهم من أمام البيوت. بتنا نشتاق لتلك الأصوات، واشتقنا أيضًا لمشاكستهم للكبار. يبدو أن الطفولة في غزة قد قُتلت. نعم، أعلم مدى صعوبة هذه الجملة، ولكن هذه هي الحقيقة التي يجب أن نواجهها ونستعد لها.

كنت اليوم في ورشة للكتابة الإبداعية، ودار جدل بين متدرب ومتدربة حول كيفية تربية أطفالهم. قال إيهاب: "أترك ابني يكسر الأخشاب، ويملأ الماء، ويشتري كل ما يلزم من محيط المنزل. أريد أن أجعله رجلًا يعتمد على نفسه، ويستطيع أن يعيش ويتأقلم وسط أقرانه من الأطفال، وخاصة حينما يكبرون. يبدو أننا نعيش في غابة القوي فيها يأكل الضعيف؛ لا أريد لابني حينما يكبر أن يصبح لقمة سائغة لأقرانه."

أما ياسمين فاعترضت بشدة وقالت: "الشارع لا يربي، بل يزرع العنف في نفوسهم ويجعلهم أكثر شراسة وأقل نضوجًا. أنا طوال الحرب أغلقت باب منزلي على أبنائي، وأقوم بتربيتهم بعيدًا عن الشارع رغم صعوبة هذه التربية الآن، ولكن أحاول قدر استطاعتي أن أربيهم كما تربينا. وكثيرًا ما تتسرب إلى أذني بعض الألفاظ النابية التي ينطقها أبنائي، والتي اكتسبوها من الشارع، ولكنني سأظل أحاول أن أحافظ على أبنائي من تأثيرات الحرب السلبية؛ لكي أنجو بهم من تلك الفوضى التي تحيط بنا."

وبينما كان النقاش يشتد بين إيهاب وياسمين، وجدت نفسي أقف بين رؤيتين متناقضتين... وكأنهما صورتان لطفلين يواجهان الحرب بطريقتين مختلفتين. إيهاب يريد لطفله أن يتخشّب قليلًا كي لا ينكسر، وياسمين تريد لأطفالها أن يظلّوا

ليّنين كي لا يتحولوا حجارة.

تأملتُهما طويلًا؛ لم يكن أي منهما مخطئًا... ولم يكن أي منهما مصيبًا بالكامل. جعلت الحرب كليهما يبحث عن طريقة للنجاة، كلٌ بطريقته: أحدهما يقذف ابنه إلى الشارع ليصبح أقوى، والآخر يسحب أبناءه إلى الداخل ليحفظ ما تبقى من براءتهم.

أدركتُ حينها أن هذه ليست مجرد مناقشة تربوية؛ إنها صرخة خوف. كل أب وأم هنا يحاولان أن يصنعا درعًا صغيرًا لأطفالهما في وجه عالم لا يرحم. لكن الحقيقة المؤلمة أن هذا الجيل سيكبر وهو يحمل آثار الحرب، سواء عاش في الشارع أو خلف الأبواب المغلقة.

في خضم الحرب، صار كل يوم بالنسبة لإيهاب وياسمين امتحانًا للصبر والوعي. يميل إيهاب إلى التعامل مع الواقع بعقلانية صارمة؛ يرى أن تعليم الأطفال الاعتماد على النفس وحماية أنفسهم من المخاطر اليومية جزء من تربيتهم، لكنه يعلم أن هذه الواقعية تُثقل كاهل براءة الصغار. كثيرًا ما يقف لحظةً يراقب ابنه وهو يرفع أحجارًا تفوق وزنه، ويشعر بالمسؤولية تتشابك مع القلق: هل سيصبح قويًا بما يكفي ليحمي نفسه، أم سيخسر شيئًا من طفولته؟

تتحرك ياسمين، على الجانب الآخر، بحذر بين القسوة والرحمة. تعلم أن حمايتهم من الشارع ومن تأثيراته السلبية ضرورية، لكنها تدرك أن حرمانهم من التجربة، حتى لو كان ذلك صغيرًا، قد يخلق فجوة بين الطفل والعالم. كل كلمة تسمعها منهم، وكل تصرف صغير، يذكرها بما فقدوه من أمان. هي تحاول أن تمنحهم شيئًا من الاستقرار النفسي، تزرع الأمل في عيونهم، وتعيد لهم القدرة على الضحك واللعب رغم الخراب المحيط.

يشكلان معًا خط الدفاع الأخير عن براءة أطفالهم، ويحاولان التوازن بين قسوة الواقع وضرورة الطفولة. لا يملكان كل الإجابات، لكنهما مستمران في المحاولة؛ لأن كل لحظة يقضونها مع أطفالهم هي فرصة لإعادة الحياة إلى شيء يشبه الطفولة، رغم كل شيء حولهم.

كل ما نتمناه... أن يخرجوا بأقل الخسائر الممكنة. أن يكبروا وهم يعرفون أن القوة ليست دائمًا عضلات، وأن البراءة ليست ضعفًا. وأننا، رغم كل هذا الخراب، حاولنا... فقط حاولنا أن نهيئ لهم عالمًا يشبه الحياة.

استشهد العديد من أقاربنا وجيراننا، ونجونا من الموت أكثر من مرة. أكثر ما كان يعذبني أسئلة الأطفال التي لا تتوقف، وتنهمر كالمطر: "لماذا توجد حرب؟"، "لماذا مات خالي؟"، "لماذا أصبح صديقي حسن يتيمًا؟"، "ولماذا خرجنا من دارنا؟"، "ولماذا صار صديقي يوسف بساق واحدة؟"، "ولماذا؟"، "ولماذا؟"، "وكيف؟."

أعتقد أنهم كانوا يعلمون إجابة تلك الأسئلة، ولكنهم كانوا بحاجة لتأكيد ما يدور في أذهانهم من خوف ورعب وفقدان للأمل والثقة.

بعد حرب عام 2014، قدمنا دعمًا نفسيًا لاثني عشر ألف طفل، وحاولنا أن نساعدهم على التعافي من آثار تلك الحرب البشعة. تكاتف الجميع وتمت السيطرة إلى حد ما على الحالة النفسية والصحية للأطفال، واستمرت الحياة وعاد الأطفال إلى مدارسهم وإلى حياتهم.

اليوم، لا مدارس يعودون إليها، ولا حياة، ولا أمل، ولا أمان، ولا حتى يستطيعون العودة إلى أنفسهم. نعم، يبدو أنهم قد نسوا ذواتهم، ومن كانوا، وأين كانوا. بعد كل ليالي الحرب الطوال، كان هم الجميع أن يبقوا أحياء، وأن ينجوا ليس من

جحيم الحرب فحسب، ولكن من جحيم المجاعة أيضًا، ومن جحيم الأمراض التي انتشرت بكثافة، وكان العديد منها يظهر ونشاهده لأول مرة، خاصة الأمراض الجلدية في ظل شبه انعدام للأدوية، وتدمير للمستشفيات والمراكز الصحية، وعلاوة على ذلك هجرة معظم الكفاءات الطبية إلى الخارج.

الآن، انتهت الحرب كما يعلنون، وانتهت معها المجاعة. ولكن ما زلنا نراوح أماكننا؛ فلا نشعر أن الحرب قد انتهت فعلًا، ولا أن المجاعة أُسدل عليها الستار. في كل يوم يتم قصف بيوت واغتيال عائلات. قد تكون توفرت بعض المأكولات في السوق، ولكن الناس لا تملك نقودًا لشرائها، خاصة في ظل الارتفاع الجنوني لأسعارها؛ فلا يعقل أن يكون سعر طبق البيض أربعين دولارًا في حين أن معظم الرجال عاطلون عن العمل.

من يعيد للأطفال طفولتهم، ومدارسهم، وملاعبهم؟ حتى البحر لم يسلم من الحرب؛ فقد امتلأ بمياه الصرف الصحي وأصبحت رائحته كريهة. أينما نظرت لا أجد سوى الخراب. غزة الآن لا تصلح للعيش: لا شوارع، لا مرافق، لا مدارس، لا جامعات، لا مستشفيات، لا كهرباء، لا ماء، لا أمل، لا شيء. لا يوجد سوى الأخبار التي تزيدنا مرضًا وقلقًا، وأصبحت كأنها لعبة تخاطب عقول الأغبياء فقط.

وكما يقول المثل: "نسمع جعجعة ولا نرى طحنًا." منذ إعلان وقف الحرب، وبعد أسبوع من ذلك، والخبر الرئيسي الوحيد هو: "سوف ننتقل للمرحلة الثانية،" و"سوف نؤجل المرحلة الثانية،" و"أمريكا تضغط على إسرائيل للانتقال للمرحلة الثانية،" و"إسرائيل ترفض الانتقال." وهكذا... وكأن حريتنا وسعادتنا مرتبطة بالمرحلة الثانية، ولسان حال الناس يقول: "فلتذهب إلى الجحيم كل مراحل العذاب التي نحياها، ثانية كانت أم ثالثة أم رابعة."

تمر الأيام والشهور والسنين، والناس ما زالت تكابد القهر، وبيوتها غارقة تحت

سيول الأمطار التي تسقط فوق خيامهم كأنها حمم من نار وليست بردًا وسلامًا. للأرض أقدام تسير بالنائمين في خيامهم فوق فراشهم؛ يفيقون ليجدوا أنفسهم في مناطق أخرى، وقد يكونون في عرض الشارع. لا أحد يسمع صرخاتهم ، تذوب تحت أقدامهم الغارقة بالمياه. يحاولون إنقاذ أطفالهم، يمسكون بهم بكل قوتهم خوفًا من أن يجرفهم السيل الشديد، ويحاولون إنقاذ ما يمكن إنقاذه من أشيائهم، ولكن عبثًا يفعلون؛ فآنيتهم، وملابسهم، وفراشهم سحبها التيار الجارف، وظلوا بلا شيء، لا يملكون سوى غضبهم، ودموعهم، وقهر لا يشبهه قهر.

يصرخون بأعلى أصواتهم ساخطين على كل هذه الدنيا وعلى كل ما فيها. أحاول أن أتخيل كيف سيكون مستقبل هؤلاء الأطفال، وكيف ستمحى من ذاكرتهم هذه اللحظات، ولا أريد التخيل. لا زال صراخ الأطفال الجوعى يخترق قلبي قبل أذني، ويشعرني بالعجز الشديد والضعف، وبالألم الذي لا يشبهه ألم. ولا تسعفني الكلمات لكي أقول لكم ما حدث ليلتها، ولكن سأحاول أن أحكي لكم الحكاية.

بيوتنا في المخيم متلاصقة جدًا، حتى إننا في أحيان كثيرة نشعر أننا نعيش في منزل واحد، فنسمع حتى زفرات بعضنا. يومها خرج جارنا الطيب "أبو حسن" ليجلب الدقيق لأبنائه الجوعى، الذين لم يتوقفوا طوال النهار والمساء عن البكاء من شدة الجوع. لا نسمع منهم سوى جملة: "جائعون يا أمي." كانت صرخات الأطفال لا تمزق قلوبنا فحسب، بل تمزقنا أشلاء. من يستطيع أن يتحمل بكاء وصراخ طفل لا يطلب سوى كسرة خبز؟

لم يكن حالنا أفضل منهم بكثير؛ فنحن أيضًا، مثل الجميع، لا يوجد في منزلنا ما نقتاته أو نعطيه لهم سوى دعواتنا، ودموعنا، وغضبنا الذي لا يسكت جوعهم. هناك أشياء في الحرب أشد من الموت. تعرضنا للموت عدة مرات خلال أيام الحرب الطويلة، ولكننا لم نتألم كألمنا على أطفال أبو حسن.

كانت "أم حسن" تحاول إسكات أبنائها وتقول لهم: "بعد قليل سيعود والدكم ومعه الطحين، وسأخبز لكم وتملؤون بطونكم خبزًا شهيًا." كنا ندعو معها أن يعود أبو حسن سريعًا ومعه كيس الطحين؛ حتى يستطيع أن يسكت صراخهم ويهدئ من غضبنا وحزننا. ولكن بعد منتصف الليل سمعنا صوت جرس الهاتف، وأم حسن أجابت على المتصل، ثم بعد لحظات أطلقت صرخة مدوية وقالت لأبنائها: "والدكم استشهد!"

كانت تصرخ على أبو حسن بوجع وألم لا مثيل له في التاريخ. لم نسمع في حياتنا صراخًا وقهرًا مثل الصوت الذي خرج من أم حسن. كانت تبكي وأبناؤها يصرخون مرددين: "جائعون يا أمي." كانت تجيبهم: "والدكم مات." فيردون عليها: "جائعون يا أمي."

ركضنا إلى منزلهم لنواسيهم ونحاول تهدئتهم، ولكن الأطفال لا يفهمون شيئًا... أو ربما يفهمون، ولكن الجوع يسيطر على كيانهم. وقبل الفجر بقليل، أحضر الشباب جثمان أبو حسن في غطاء أبيض وكأنه كيس دقيق، يشبه إلى حد كبير كيس الدقيق، ومعه أيضًا كيس دقيق. وضعوا أبو حسن وكيس الدقيق بجوار بعضهما وغادروا.

ذهب الأطفال نحو كيس الدقيق غير مدركين أن في "الكيس" الآخر والدهم. ألقت أم حسن نفسها على جثته تحتضنه بكل غضب الكون، وتشكو له: "لمن تتركنا؟" كان الأطفال لا يزالون مستمرين في الصراخ نتيجة الجوع، ثم أتت إحدى الجارات وقالت: "برغم كل شيء، يجب أن نطعم هؤلاء الصغار؛ فهم يكادون يموتون من شدة الجوع." ثم خبزت لهم بعض الأرغفة وأطعمتهم.

في الصباح حملنا أبو حسن ووارياه الثرى في المقبرة، وعدنا إلى بيوتنا، ولكننا لم نعد الأشخاص أنفسهم بعد دفن أبو حسن. قد تكون هذه من أصعب الأيام

التي عشتها في الحرب. الألم ليس بالزمن؛ كانت هذه الليلة محمّلة بعجز أمة بأكملها، بل عالم كامل. لا وصف أو كلام يستطيع أن يعبر عما شعرنا به تلك الليلة، كانت كأنها "ألف ليلة وليلة" من الحزن الصافي.

ودومًا كان الأطفال بالنسبة لي هم من يكسرون القلب ومن يسعدونه. منذ بلوغي سن الرشد، كان أكثر ما يحزنني حزن الأطفال والشيوخ، وأكثر ما يسعدني سعادتهم. حتى إن الكثير من أصدقائي المقربين كانوا يكبروننني بعشرات السنين؛ ولذلك كانت معاناتي مضاعفة خلال الحرب لأن معظم ضحاياها من الأطفال والمسنين والنساء أيضًا، فكان للنساء في الحرب حكايات أخرى تعجز اللغة عن وصف ما عانينه خلالها.

فقد آلاف الأطفال آباءهم وأمهاتهم. قبل أيام ذهبت إلى مؤسسة كنا نريد منها عددًا من الأطفال ليقدموا فقرة ضمن افتتاح "مهرجان غزة لسينما الطفل،" فأخبروني أن كل الأطفال الموجودين بالمؤسسة أيتام، فقدوا الأب والأم. كان عددهم أربعين طفلًا. لأول مرة أرى هذا الكم من الأطفال اليتامى. أحيانًا كنت أشاهد طفلًا أو طفلين، أو ثلاثة أيتام لا أكثر، ولكن حينما تشاهد أربعين طفلًا دفعة واحدة، وتعلم أنهم فاقدون للأب والأم، تصبح غير قادر على التفكير. يمتلئ قلبك بالعطف والحب تجاههم، وتريد أن تلمس النجوم وتضعها تحت أقدامهم وتحتضنهم.

تتقافز الأسئلة إلى رأسي: "كيف أساعدهم؟"، "هل أختار منهم فريقًا مسرحيًا وأدربهم وأرعاهم ليقدموا حكايتهم أو يحملوا صوتنا إلى العالم بعمل مسرحي؟" نعم، سيظلون قابعين في ذاكرتي، ولن أنساهم. لا بد أن يأتي يوم ما وأعود إلى صديقي محملًا بأخبار سارة تخص هؤلاء الأطفال. لا بد أن أفعل شيئًا من أجلهم.

أكبر مصيبة الآن في غزة لن تحلها المساعدات القادمة من الخارج فقط، ولكن نحن بحاجة إلى أن نحتضن بعضنا البعض، وأن نمد يد العون بكل ما نستطيع للمحتاجين منا. أفكر الآن كثيرًا في فصل الشتاء الذي لم يبدأ بعد، وقد غرقت العديد من المناطق في غزة. كيف سنحمي هؤلاء الناس؟ نحن أمام نكبة ومصيبة ماثلة أمام أعيننا، ولم نتخذ لها الإجراءات المناسبة. آلاف الخيام مقامة على شاطئ البحر مباشرة، ومثلها مقامة فوق أراضٍ منخفضة تصلح لتجميع المياه لا لإقامة الخيام فيها .

في سنوات سابقة كانت السماء تمطر أحيانًا خمسة أيام بشكل متواصل، ولكن لو أمطرت السماء الآن ثلاثة أيام على غزة بشكل متواصل، سيلقى الآلاف من الناس حتفهم؛ ولذلك أعتقد أن الحل الوحيد لكل هؤلاء، والمتوفر الآن، هو أن يذهبوا جميعًا ليسكنوا خلال المنخفض الجوي في المنازل التي لم تهدم بعد، ويجب أن نساعد بعضنا البعض لننقذ أرواح بعضنا. جميعنا سقطنا في هذه الهاوية، ويجب أن نعمل معًا حتى نخرج منها.

في كل ليلة أصحو على بكاء حفيدتي "سلام" التي لم تبلغ بعد من العمر سوى ثلاث سنوات، وهي تقول: " العووو... في عووو." خائفة من شيء ما. وفي كل ليلة نركض باتجاهها أنا وزوجتي ونحاول طمأنتها، ونخبرها: " لا يوجد شيء اسمه عوو يا حبيبتي،" ونحتضنها ونحاول تهدئتها، ولكن لا تهدأ إلا حينما نضيء الأضواء ونحملها ونتمشى بها في المنزل حتى نُخرجها من الحالة التي تتملكها وهي نائمة.

في أحيان كثيرة تكون هواتفنا فارغة من الشحن، ولا نجد ما نضيء به ليلًا، فنحاول أن نوفر بعض الإضاءة من بقايا بطارية مهترئة، ولكنها لا تكفي لإسكات الطفلة. كيف سنُخرج "العوو" من رأسها ومن ديارنا؟

فهناك "عوو" في السماء، و"عوو" على الأرض، و"عوو" في البحر، والعوو يحاصرنا من كل اتجاه. أكاد أجزم أن سكان غزة جميعهم يعانون من هذا "العوو." خلال الحروب، كثيرًا ما تكون هناك تصريحات سياسية مبالغ فيها حول الوضع الإنساني، والوضع الصحي، والوضع التعليمي؛ حتى يستنهضوا الإنسانية والرأي العام لإنقاذ الناس ومساعدتهم. ولكن في هذه الحرب، مهما وصفنا، ومهما قلنا، ومهما نقلنا من صور ومشاهد تحاول أن تعكس نكبتنا وما حدث بغزة بالفعل، فلن تستطيع أن تصف نصف مصيبتنا الحقيقية التي دُمر فيها كل شيء تقريبًا.

وإذا كانت الحرب قد انتهت فعلًا، وسيتم الإعمار، وفتح المعابر، وإدخال المساعدات، وإدخال الأدوية، وصيانة المستشفيات، والبدء بالعملية التعليمية، ودعم الفقراء، وإدخال "كرفانات" للناس التي تعيش في الطرقات، وفتح جميع المعابر... فيجب أن يتم هذا بأسرع وقت ممكن.

وسط كل هذا الخراب، يظل الأطفال قلب الحرب النابض، ومع كل صرخة وجوع، تتكشف هشاشة عالمهم الصغير. فقد أبو حسن حياته، لكن صرخات أولاده لم تختفِ، بل بقيت تملأ المكان، لتذكرنا بأن البقاء على قيد الحياة ليس مجرد صمود الجسد، بل صمود الروح. إيهاب وياسمين يحاولان حمايتهم، يشيدان لهم حصونًا من الطفولة المسروقة، ويزرعان فيهم قدرة على الصمود، حتى لو كان ثمن ذلك تأجيل الأحلام أو جعلها بعيدة المنال.

أصبحت الضحكات أثمن من أي شيء، والمشي بين الركام من أجل تأمين أبسط الأشياء -ككوب ماء أو رغيف خبز- تحول إلى درس يومي عن الحياة. قد تغيّر الحرب أحلامهم، لكنها لم تمحِ حاجتهم للحب والدفء، ولم تقطع رابط البراءة الذي لا يزال يلوح في وجوههم، رغم كل شيء. وفي نهاية كل يوم، تظل الأسئلة المتكررة، والقلق، والخوف، والأمل المتواضع، ينسجون معًا مستقبل هؤلاء الأطفال، على

أمل أن ينبت منهم جيل قادر على استعادة الحياة ولو من بين الركام.

يجب أن نرى الأطفال بشكلهم الطبيعي على مقاعد الدراسة، يرتدون أجمل الملابس، ويلعبون بألعابهم، ويذهبون برفقة عائلاتهم إلى المتنزهات، ويسبحون في البحر... في بحر نظيف مثل باقي أطفال العالم. متى ستعود ضحكاتهم الصافية على شفاههم؟ تلك الضحكات التي كانت تضيء القلوب وتجعل عالمنا أجمل.

مطاوع يتهاوى

منذ أن عدتُ نازحًا إلى دير البلح، جاء صديقي الشاب مطاوع ليحييني ويُرحّب بي، وكنتُ أودُّ أن أسأله ذلك السؤال الذي يقف في حلقي، والذي يرتسم على وجه مطاوع، بل على كل جسده. حتى جلسنا، بالأمس، صدفةً بعد العصر، تحت شجرة "أكاسيا" مزروعة أمام المنزل، هي الأخرى نالها ما نالها من القصف والتجريد؛ ففي إحدى المرات قُطعت إلى نصفين بفعل شظية.

كنا نراقب عودة النازحين إلى الشمال، والشاحنات المحملة بالأثاث والناس. مشهدُ الناس ووجودهم على الشاحنة لابد من وصفه؛ حين تمتلئ الشاحنة عن آخرها بأثاث المنزل من أطقم "الكنب" وغرف النوم والحقائب وأكياس الملابس وأدوات المطبخ، ودائمًا تمتلئ الشاحنات عن آخرها؛ بحيث لا تستطيع أن تضع عليها كأس شاي. بعد ذلك يأتي الجزء الأصعب: صعود أصحاب المنزل إلى الشاحنة.

وهنا يتم استحضار المعجزات والحلول العبقرية، والتفكير خارج الصندوق وداخل الصندوق وفوقه وتحته، لإيجاد مكان لكل أفراد الأسرة داخل صندوق الشاحنة التعيس، وقد يكون عددهم عشرة أشخاص أو أكثر. يبدؤون بالأطفال، ودائمًا ينظرون إلى أقرب مقعد يواجههم ويلقون الطفل عليه، فيسقط بين الأثاث، ولا يبقى ظاهرًا منه سوى رأسه أو جزء منه. ويستمرون هكذا بإلقائهم بين الأثاث كحبات البطيخ حتى ينتهوا من الأطفال الذين يصبحون داخل الشاحنة وكأنهم جزء من المتاع، ملتحمين به، وقد لا تستطيع تفريقهم إلا إذا دققت النظر أو حرك أحدهم رأسه.

أما الكبار، فبالعادة نوعان: نساء ورجال. الرجال يصعدون أعلى الأثاث، كلٌ يجد مساحته الخاصة، ووضعيتهم التي لا يتحملها بشر يبقون عليها طوال الطريق حتى يصلوا إلى منازلهم في شمال غزة، على سبيل المثال. قد يبقى الرجل جالسًا على حافة الشاحنة الخشبية بعرض سنتيمترين طوال المسافة، في رحلة تستغرق -حسب ازدحام الطريق- من ساعتين إلى ست ساعات.

أما النساء، فدائمًا ما يترك صاحب الشاحنة مسافةً بمقدمة الصندوق؛ عشرين سنتيمترًا بعرض مترٍ لكل النساء، ويقول لهن: "دبروا حالكن فيها"، وأحيانًا كثيرة

يربطهن مع الأثاث حتى لا يسقطن على الأسفلت أثناء الطريق الممتلئ بالمطبات والحفر بفعل الحرب. تبدأ رحلة النزوح بهذه اللوحة السريالية العبثية التي يعجز الخيال عن وصفها مهما كتبنا.

كنا أنا ومطاوع نراقب، وعلّقنا على كل شيء كعادة أهل غزة، حتى غادرتنا الشاحنة، وكان يبدو السرور على وجوه العائدين. كان الأطفال يخرجون رؤوسهم مبتسمين من بين الأثاث، ثم يعيدونها مرة أخرى وهكذا دواليك، كأنهم أسماك تتقافز داخل البحر. هناك فرق شاسع بين وجوه النازحين وهي مغادرة للمنزل، وبين وجوه العائدين إليه: هنا وجع ومرارة الفراق، وهناك فرح وشوق اللقاء؛ كالفرق بين الجنة والنار.

تحركت الشاحنة ببطء، وسارت جهة مدينة غزة الحبيبة.

ثم نظرتُ إلى مطاوع بجسده الهزيل وعينيه الغائرتين اللتين يحيط بهما السواد؛ هو الذي كان سابقًا -قبل عودتي إلى الشمال في المرة الأولى- يمتلك جسدًا كأجساد أبطال كمال الأجسام؛ إذ كان ملتزمًا بالرياضة، وعيناه تضجان بالحياة. سألته: "ماذا حدث لك يا صديقي؟"

صمت قليلًا وطأطأ رأسه، وقال بخجل: "المجاعة يا عم أبو فادي." ثم تابع قائلًا: "المجاعة كادت تقتلني، لقد فقدت من وزني ثلاثين كيلوغرامًا. كان وزني 90 كيلوغرامًا، وأصبح الآن 60، ولا يزال ثابتًا عند الستين، وما زلت منذ شهور تحت المراقبة وأتلقى العلاج."

سألته: "حدثني عما جرى بالتفصيل." أجاب: "كنت أسير بكل بساطة داخل منزلي، وفجأة أفقت في المستشفى وكيس المحلول معلق فوق رأسي. لم أتذكر أي شيء، وبعد ذلك أخبروني أنها حالة (أنيميا) حادة، وما زلت منذ ثلاثة أشهر على هذا الحال."

أجبته: "الحمد لله على سلامتك. الآن يجب أن تأكل جيدًا، فقد توفرت الكثير من

السلع؛ كاللحم والدجاج والفاكهة والمكسرات. صحيح أن أثمانها لا تزال مرتفعة، ولكن حالة كحالتك تستوجب رعاية خاصة."

فقال لي: "يا عم أبو فادي، لا يوجد في المنزل شيكل واحد، حتى أنني لا أجد حبة فيتامين واحدة. نعم، سمعت وشاهدت الأطعمة التي ذكرتها، ولكن من أين لي أن أشتريها؟ أنا لا أزال أعاني من آثار المجاعة وحالتي تتدهور. كل خوفي أن أموت وأترك أبي وأمي وإخوتي وحدهم. كما تعلم، أبي كبير في السن، وطوال الوقت أفكر بشيء واحد: إذا مت، من سيرفع المياه إلى الشقة في الأعلى؟ وأنت تعلم أن العمارة مليئة بالمستأجرين، ودائمًا هناك تنافس على المياه التي تأتي نادرًا. ومن سيذهب لقضاء حوائجنا؟ ليس لهم سواي. طوال الوقت أفكر بعائلتنا وماذا سيحدث لهم لو غادرت. أشعر بالخجل الشديد من نظرات الناس لي ولجسمي الهزيل؛ كيف كان وكيف أصبح. أحاول دائمًا الهرب من سؤال: ماذا جرى لك؟ أخجل من ضعفي وعجزي."

وأضاف: "لم تدمر الحرب بيوتنا فحسب، بل دمرت أرواحنا أيضًا. أقول إن من مات استراح، وكثيرًا ما تمنيت لو أنني لم أفِق من لحظات الإغماء نتيجة شعوري بالعجز. كانت لدي أحلام بالسفر والتعليم، وقبل الحرب بأيام كنت أستعد للسفر، ثم اندلعت الحرب وأُغلقت المعابر، وأصبح الخروج من غزة يحتاج إلى خمسة آلاف دولار لكل شخص. لم أكن أملك إلا ثمن المواصلات ورسوم المغادرة. ماتت أحلامي مع الآلاف الذين قضوا، وسوف تنتهي قصتي وسط زحمة القصص التي تملأ كل زاوية في غزة؛ القصص الأكثر ضراوة وقسوة."

وتابع قائلًا: "من أنا يا عم أبو فادي حتى يلتفت الناس إليّ؟ هنا كل شيء قليل إلا الأحزان، التي أصبحت باتساع الكون، حتى الكون لم يستطع أن يوقفها. دومًا نحاول أن نحلم، ودومًا تتكسر أحلامنا كأمواج بحر غزة، الذي ناله هو الآخر ما ناله من الحرب؛ فحُطّمت مراكب صياديه، وغادرت مياهه أهازيج البحارة وفرحتهم وهم عائدون فجرًا بكل أنواع الأسماك التي جاد عليهم البحر بعطائه، وأطفالهم ينتظرون على الشاطئ مهللين بعودة آبائهم بالخير الوفير. منذ بداية الحرب، أشعر أن البحر صامت كرجلٍ كهلٍ فعل به الزمن أفاعيله، ولم يعد يعجبه شيء، أو فقد معنى

الأشياء، وتساوت لديه الأفراح والأحزان، كأنه جثة تتحرك بصمت، فقرر السكوت.

في الماضي كانت أمواج البحر ترتفع وتتلاطم على الشاطئ بارتفاع ستة أمتار وأكثر، ومنذ زمن لم أشاهد ارتفاع الموج. يبدو أن حالة الانكسار والانحصار لم ينجُ منها حتى البحر."

نهضتُ وتركتُ مطاوع وحديث البحر، وعدتُ أفكر بعائلتي بعد أن توقفت الحرب كما أُعلن. تدافعت الأفكار في رأسي حول العودة إلى المنزل أم التروي قليلًا، فأتفقد إعلان الاتفاق ببنوده العشرين؛ فكل بند في الاتفاق يحتاج لعشرين بندًا لتفسيره، ولا شيء واضح سوى تسليم الأسرى الإسرائيليين الذين سلمتهم حركة حماس، أما بقية مراحل الاتفاق فمليئة بالألغام.

ولكن، يجب أن أتخذ موقفًا: هل أعود إلى المنزل وأغامر، وقد تكون الحرب انتهت فعلًا؟ يبدو أن المشكلة فينا نحن؛ فمن شدة ما عانيناه خلال أكثر من عامين في هذه الحرب لم نعد قادرين على التصديق أنها ستتوقف يومًا ما. أم أنتظر قليلًا لأوفر تكاليف النزوح الباهظة من الشمال إلى الجنوب وبالعكس؟ صراع لا يتوقف بيني وبين نفسي، وبين أبنائي وزوجتي التي لم تكفَّ عن الطلب والإلحاح بالعودة فور إعلان انتهاء الحرب. نعم، الحنين يقتلنا جميعًا للعودة إلى المنزل، ولكن منذ الإعلان وحتى الآن استشهد أكثر من ثمانية وثلاثين شخصًا في مناطق مختلفة من غزة، علاوة على أكثر من مئة مصاب. الوضع لا يطمئن، وها هي الأحداث تتصاعد، وقد عادت المناوشات في رفح وقُتل جنديان إسرائيليان. يبدو أن إسرائيل تستعد لجولة جديدة من التصعيد، وتهدد بعودة الحرب طوال الوقت.

في كل ليلة أبقى مستيقظًا حتى الصباح، أقرأ الأخبار وأتابع كل تحليلات الكون السياسية، حتى أطمئن إلى أن الحرب توقفت ولن تتجدد.

ولكنني اتخذت قراري: غدًا سأعود إلى البيت. لم نعد قادرين على الابتعاد عن المنزل؛ حضننا الدافئ الذي بنيناه من عرق وتعب السنين. البيت الذي كبر به

أبنائي، وحضن ذكرياتنا. المنزل ليس الوطن الصغير فحسب، ولكنه يعني الحرية بأبجدياتها الأولى، والأمان والاطمئنان؛ كيانك الصغير الذي تستلقي بجانبه أينما شئت وكيفما شئت. تلك المعاني لا تتوفر أبدًا للنازحين، الذين كثيرًا ما أبكوني، خاصةً أولئك الذين فقدوا بيوتهم ويعيشون على جنبات الطرقات. أعتقد أن معظم سكان قطاع غزة ينظرون إلى بعضهم البعض ويبكون حالهم وأحوالهم؛ زلزال من النار ضرب الأرض والبشر.

كل من سيزور غزة من الخارج الآن لن يصدق ما سيراه، وسيدرك معنى أن نكتب مرارًا: أنه مهما كتبنا فلن نستطيع التعبير عن الواقع. وسيدرك من كانوا يكتبون ويعلقون عن الحرب من خارج غزة أنهم كانوا يعيشون في كوكب آخر، وأن نكبتنا أكبر من أن توصف، وأن كثيرًا من الناس ما زالوا يتساقطون حتى الآن من أثر المجاعة، حتى بعد إعلان انتهاء الحرب. وأهل مكة أدرى بشعابها.

كنت، وأنا أكتب هذا النص، قد توقفت عن إكماله؛ لأننا قررنا العودة إلى المنزل. اتفقنا مع سائق شاحنة لينقلنا إلى منزلنا في غزة على دفعات. طبعًا، حين نزحنا إلى دير البلح -أنا وأبنائي- أخذنا معنا كل أثاث المنزل، وبدأنا بلمّ الأشياء وحزم الفراش وفك الخزائن. كان عملًا وجهدًا شاقًا أخذ منا ثلاثة أيام، وخاصة أننا كنا قد بنينا مطبخًا بالأرض من ألواح الصفيح (الزينكو) التي أحضرناها معنا من غزة. في النهاية، جاءت الشاحنة وحملت جزءًا من الأغراض وعدنا إلى المنزل. بعد أن أنزلنا كل شيء أمامه وداخله، عاد السائق ليجلب أبنائي وبناتي وبقية الأثاث. أما أنا وزوجتي وجزء من أبنائي فاستلقينا متعبين، لم تبقَ بنا طاقة على الحركة أو فعل أي شيء نتيجة كل هذا الجهد وطول الطريق ومشقته.

ولكن، بمجرد دخولنا المنزل، شعرنا أن أرواحنا عادت إلينا، وبدأنا لأول مرة نصدق أن الحرب قد انتهت فعلًا. شعور لا يوصف؛ أن تجد بيتك لا يزال صامدًا وسط كل هذا الدمار الكبير، وخاصة أن منازل بناتي دُمرت، وهذا هو ملاذنا الوحيد.

في كل مرة كنت أغادر المنزل وأشك في سلامته، كنت حين أعود وفور دخولي، أجلس على مقعد الخيزران الخاص بي، وأقول: "آه.. آه!" طويلة. لا أعرف قصتي

مع هذا الكرسي، ومع هذا الفعل المتكرر في كل مرة.

حتى قبل الحرب، حين كنت أسافر وأعود، كنت أجلس على هذا الكرسي وكأنه جهاز لتفريغ الطاقة السلبية وإزاحة التعب.

نعم، عاد أبنائي مساءً بالشاحنة وبأمتعتهم، وصرنا جميعًا في المنزل. وبمجرد وصول زوجة ابني، فاجأها مخاض الولادة، وبعد ثلاث ساعات وضعت مولودها، الذي لم يختاروا له اسمًا حتى الآن. فصارت فرحتنا فرحتين: فرحة العودة إلى المنزل، وفرحة المولود الجديد.

كانت عودتنا إلى المنزل سالمة بمثابة الفوز بالجائزة الكبرى في اليانصيب. اليوم، أن يكون منزلك واقفًا في غزة، فأنت من أشد المحظوظين وسط كل هذا الخراب. أردت احتضان كل جزء في المنزل. كل شيء جميل. أعدتُ غرفة النوم إلى مكانها، وطقم الأرائك والمطبخ، وبدأ المنزل يتنفس حياة، كأنه جنين تدب فيه الروح شيئًا فشيئًا .

في تلك الليلة لم أنم. كانت جدران البيت تتنفس معنا، تتنفس ببطء كمن عاد من رحلة طويلة في الظلام. كل زاوية تنظر إلينا بدهشة، كأنها لا تصدّق أننا عدنا فعلًا، وأننا لم نكن حلمًا عابرًا في ذاكرة الإسمنت. جلستُ على كرسي الخيزران كعادتي؛ الكرسي الذي أصبح مثل صديق قديم يعرف كلّ ما دار ويداري صمتي. رائحة الغبار المختلط برائحة المولود الجديد ملأت المكان، كانت مزيجًا غريبًا من الموت والحياة، كأن غزة كلها وضعت طفلًا في تلك اللحظة.

سمعتُ بكاءه من الغرفة المجاورة، كان بكاءً ناعمًا لكنه اخترق صدري كرمح من نور. لم أتحرك؛ بقيتُ أستمع إليه وأقول في نفسي: هذا الطفل لم يعرف بعدُ معنى الخوف، لم يسمع صفير الصواريخ، لم يذق طعم النزوح، ولا يعرف أن الغرفة التي وُلد فيها كانت قبل أسابيع هدفًا محتملًا لطائرة. بكاؤه وحده كافٍ ليعيد للبيت نبضه. قلت في نفسي: لعلّ الله أرسله تذكرة صغيرة بأن الحياة -رغم كل شيء- ما زالت ممكنة.

مع الفجر، فتحتُ النافذة. الهواء كان ثقيلًا، كأنه يخرج من رئتين متعبتين. نظرتُ إلى السماء، فرأيتُ طائرة استطلاع تدور في دوائر صغيرة كذبابةٍ لا تملّ. لم تكن السماء زرقاء، بل كانت رمادية كرماد موقد انطفأ منذ زمن. من بعيد، بدأتُ أسمع أصوات المؤذنين؛ صوتٌ فوق صوت، كلّ واحد يحاول أن يرفع الأذان في حيّه، لكن الكهرباء المقطوعة جعلت مكبرات الصوت تتلعثم؛ فبدت الأصوات متقطعة، كأنها أنين أكثر من كونها دعوة للصلاة. ومع ذلك، أحسستُ بطمأنينة غريبة، ربما لأن الأذان يعني أن الليل انتهى، وأن يومًا جديدًا -مهما كان صعبًا- قد بدأ.

خرجتُ إلى الشرفة، كانت الشوارع شبه خالية. بعض الجيران عادوا بالأمس مثلنا، رأيتهم ينفضون الغبار عن الأبواب، يرفعون الستائر الممزقة، ويضحكون بخجل كأنهم يعتذرون للحياة عن طول الغياب. جارنا أبو شادي وقف أمام بيته يحمل بقايا شجرة مقطوعة من الحديقة، ويحاول أن يغرسها في التراب من جديد. نظرتُ إليه وقلت في نفسي: كم هو عنيد هذا الشعب! يزرع حتى الأغصان الميتة، كأنه يتحدّى العالم بأن تُثمر مرة أخرى. ابتسم لي من بعيد وقال: "رجعنا يا أبو فادي، رجعنا!" أجبته: "رجعنا، بس مش عارفين إلى متى."

رجعتُ إلى الداخل، كانت زوجتي ترتب الأغطية وتهمس بكلمات غير مفهومة، فلم أرد أن أزعجها. اقتربتُ من ابني الأكبر الذي كان ينظر إلى السقف، فسألته: "في إيش بتفكر؟" قال: "بفكر لو رجعت الحرب شو راح نعمل؟ وين نهرب المرة هاي؟" كلماته كانت كسكين باردة. لم أجد جوابًا، فقلت فقط: "إن شاء الله ما بترجع." لكنني كنت أعلم في داخلي أن الحرب لا تغادر، بل تنام بين الجدران وتنتظر من يوقظها.

بعد الإفطار، خرجتُ أفتش في الأحياء القريبة. أردتُ أن أرى إن كانت البقالة ما زالت قائمة، وإن كان بائع الخبز ما زال حيًا. كل خطوة كانت أشبه بزيارة مقبرة مفتوحة؛ الجدران مثقوبة، واللافتات ممزقة، ورائحة الدخان لا تزال تنبعث من بعض الأنقاض رغم مرور الأيام. أمام أحد البيوت وقفت امرأة مسنّة، تنظّف حجارة متفحمة بيديها العاريتين. نظرت إليّ وقالت: "كنت أغسل ابني هون." لم أعرف ماذا أقول، فقط انحنيتُ قليلًا ومضيت.

عـدتُ إلـى البيـت أحمـل كيسًـا صغيـرًا فيـه خبـز وبعـض المعلبـات. فتحـتُ البـاب فاستقبلني صوت المولود؛ كان يبكي بقوة هذه المرة، ربما شعر بجوع لم يعرفه بعد، أو خاف من صمت البيت الكبير. حملته زوجة ابني وهي تضحك: "سمّيناه رامز." جلستُ بجانبه أتأمله؛ وجهه صغير جدًا، لكن ملامحه تحمل شيئًا منّا جميعًا، من خوفنا وصبرنا وغبار الطرقات الطويلة. قلتُ في سري: "يا رامز، لا تكبر بسرعة، فالكبار هنا يتعبون كثيرًا."

في المساء، اجتمعنا جميعًا في الصالون. الكهرباء ما زالت مقطوعة، فأضأنا بعض الشموع، والهواء كان رطبًا وثقيلًا. دار حديث طويل بيننا: من سيعيد إصلاح السقف؟ من سيجلب الماء؟ من أين سنبدأ؟ بدا كل شيء صعبًا، لكن عيوننا كانت تلمع بفرحٍ خفيّ؛ فرح البقاء. تحدث ابني الصغير قائلًا: "بابا، بدنا نروح البحر." ضحكتُ وقلت: "البحر؟ البحر تعب يا حبيبي، بس إن شاء الله نروح له قريب." لكنني كنت أعرف أن البحر ما زال صامتًا، وأنه حتى لو ذهبنا إليه سيظل ينظر إلينا بوجعٍ صامت، تمامًا مثلنا.

تسللتُ إلى الشرفة ليلًا، كانت الرياح باردة قليلًا. في الشارع، أضواء الشموع تتلألأ من نوافذ البيوت القليلة التي نجت. هناك شيء من الحياة يعود ببطء. سمعتُ من بعيد صوت شاحنة أخرى، ربما عائلة أخرى عائدة، وربما نازحون من جديد، لا أحد يعلم. تذكرتُ مطاوع، صديقي الذي لم يزرنا بعد. قررتُ أن أراه غدًا. في ذهني صورته النحيلة، وصوته المتعب حين قال: "المجاعة يا عم أبو فادي." تمنيتُ لو أجد له عملًا أو حتى جلسة نتحدث فيها عن أيامنا قبل كل هذا. جلستُ أكتب له رسالة في رأسي:

"يا مطاوع، عدنا إلى البيت، لكنه ليس البيت ذاته. الجدران واقفة لكن الأرواح منهكة، والأحلام تائهة في الركام. نحتاج أن نجلس معًا، أن نحكي ونضحك كما كنا نفعل تحت شجرة الأكاسيا التي قُطعت نصفين."

انطفأت الشمعة فجأة، فغمرني الظلام. لم أشعر بالخوف هذه المرة، بل بشيء من السلام الغريب؛ ربما لأننا في بيتنا. تذكرتُ تلك الجملة التي قلتها لنفسي

أمس: "أن يكون بيتك واقفًا فأنت من أشد المحظوظين." لكنني أضفتُ في قلبي جملة جديدة: "وأن يكون قلبك ما زال ينبض رغم كل هذا، فأنت ناجٍ بمعجزة." مع الفجر الثاني بعد العودة، استيقظتُ على أصوات الأطفال في الحيّ، يركضون بين الركام ويلعبون بالحجارة كأنها كرات. كنتُ أراقبهم من النافذة وأفكر: هؤلاء هم الحقيقة الوحيدة الباقية، هم الذين يعيدون رسم المكان بخطواتهم الصغيرة. اقترب أحدهم من الباب وسأل: "عمو، بدكم نساعدكم نكنس الشارع؟" ابتسمتُ وقلت: "أكيد، بس انتبهوا من الزجاج." بدأوا يجمعون الحجارة ويغنون أغنية بسيطة تعلموها في المدرسة قبل الحرب، كانت كلماتها عن الوطن والعودة. ضحكتُ في سري: حتى الأغاني هنا لا تعرف موضوعًا آخر.

في المساء، حين هدأ كل شيء، جلستُ أكتب ما حدث. أحاول أن أدوّن اللحظة قبل أن تذوب في ضوضاء الأيام القادمة. الكتابة أصبحت عندي مثل التنفس، إن لم أكتب أختنق. أكتب كي أتذكّر أنني حي، وكي أترك أثرًا صغيرًا لمن سيأتي بعدنا. ربما سيقرأ رامز يومًا ما هذه السطور ويعرف من أين بدأنا، وكيف بقينا. أكتب لأقول للعالم إننا لا نبحث عن البطولة، نبحث فقط عن يومٍ واحدٍ دون قصف، عن نومٍ عادي دون خوف، عن بيتٍ يبقى واقفًا إلى الغد.

رفعتُ رأسي فرأيت القمر يعلو ببطء، وجهه شاحب لكنه مضيء بما يكفي لأرى وجهي في زجاج النافذة. لم أتعرف على نفسي تمامًا، لكنني ابتسمت. قلتُ بصوتٍ خافت: "الحمد لله، نحن هنا." ثم أغلقتُ الدفتر، ووضعتُ القلم على الطاولة، وجلستُ على كرسيّ الخيزران، أتنفس بهدوء وأنتظر أن يولد صباحٌ جديد؛ صباحٌ يشبه وجه رامز: ناعمًا، خجولًا، لكنه حيّ.

# ما بين بسمة ورغيف الخبز

في حالتي إغماء، ودون وعي أو إدراك منك، تجد نفسك في ثوانٍ مسؤولًا عن حياة إنسان فقد الوعي بين يديك أو بجانبك، وأنت الآن مسؤول عن إفاقته أو إنقاذه من حالة الموت المؤقت التي تعرض لها نتيجة الجوع.

قد يبدو الحديث بسيطًا، ولكن أؤكد لكم أنه ليس كذلك؛ فالنقيضان تمامًا يصفان حالتي الإغماء والإنقاذ: أحدهما غاب عن الوعي تمامًا وفقد الإحساس بكل شيء، وملقى على الأرض شبه ميت، والآخر، وهو المنقذ، يجب أن تتوفر فيه كل سبل الحياة من تركيز ووعي وثبات من أجل أن يعمل على إفاقته. وإلا، إذا استمر الشخص في حالة الإغماء، فقد يفارق الحياة. نقيضان يلتقيان: الحياة والموت.

هذا ما تعرضت له خلال أقل من أسبوعين مضوا، وكان لزامًا عليّ أن أنقذهما. ولكن ليس هذا هو الموضوع الرئيسي، وإنما ما تشعر به كمنقذ، وما يشعر به المغمى عليه بعد أن يفيق، ومعنى الحياة والموت وما بينهما، والمشاعر المختلطة التي تنتابك في تلك اللحظات، وتشاهد شريط الحرب والمجاعة والعدالة والإنسانية يمر أمام عينيك في لحظات، وقد تلعن الدنيا ومن عليها والظروف التي أوصلتنا لذلك. دعوني أحدثكم عن الحالتين اللتين صادفتاني وعملت على إفاقتهما.

الحالة الأولى لشابة اسمها بسمة من أقاربنا. هي جميلة كالقمر، ودائمًا خدودها متوردة وشديدة الاحمرار من شدة الخجل. عيناها بنيتان وواسعتان، من الصعب إزاحة عينيك عنهما؛ فجمالهما يأسر ويخطف بسحره. لكنها دائمًا تشعر بأنها ترغب في الانزواء عن الجماعة. ولولا تفوقها الكبير في الثانوية العامة، وحديث أهلها عن خفة دمها ومشاركتها وتعليقاتها الذكية مع العائلة في جلساتهم الخاصة، لاعتقدت أن لديها مشكلة نفسية بالعزلة والانطواء. هي حريصة على كل تصرفاتها أمام الجميع: الغرباء وحتى الأقارب.

في ذلك اليوم، كنا نجلس في منزلهم في زيارة خاطفة للاطمئنان عليهم والسؤال

عن أحوالهم بعد نزوحنا الأخير إلى دير البلح، حيث أصبحوا من سكان الدير بعد أن فقدوا منزلهم في غزة منذ بداية الحرب. لم يعد هناك ما يغريهم بالعودة إلى غزة، خاصة أن إيجار السكن في الدير أكثر توفيرًا مقارنة بمدينة غزة، التي يصعب فيها إيجاد شقة للإيجار أو حتى قطعة أرض، فآثروا البقاء في دير البلح.

كنا منذ عودتنا إلى غزة لم نزُرهم أو يزورونا لصعوبة التنقل وقسوة الطرقات التي دُمّرت هي الأخرى. كنا جالسين نحتسي الشاي ونتبادل أطراف الحديث بلطف، وكلٌّ يحكي عن ذكرياته وما جرى من أحداث معه خلال فترة عودتنا إلى غزة، وخاصة ما قُصف هنا وما قُصف هناك، ومن استُشهد ومن بقي، وما تعرض له الجميع خلال المجاعة. فجأة سقطت بسمة عن كرسيها، وسقطت معها صينية الشاي وتبعثرت بعض الكؤوس، وكأنها برج قُصف للتو وسقط ببطء بدون سابق إنذار. في ثوانٍ أصبحت غير موجودة في عالمنا. أمها تصرخ، والدها لا يعرف ماذا يفعل، وإخوتها يصرخون ويبكون.

وفجأة تحولت بسمة؛ صغر حجمها جدًا حتى بدت كالطفل، وانطفأ نور الحياة في وجهها، وغاب اللون الوردي عن خدودها واستُبدل باللون الأصفر الشاحب، وانطفأت أجمل عينان. أدركت أن الجميع مرتبك ولا يدري ماذا يفعل. وبسرعة طلبت من والدها أن يبسطها على الأرض ويحاول أن يكلمها ويقرصها من أذنها، لكنها لم تفق. ثم طلبت منه أن يرفع قدميها إلى الأعلى، وطلبت من والدتها أن تحضر قليلًا من الماء لمسح وجهها مع قليل من الكولونيا أو أي نوع عطر، أو حتى رأس بصل يُقطع ويُقرب من أنفها. بالفعل قام كلٌّ بما طُلب منه، وأخذت أضرب على قدميها حتى أدفع الدم إلى رأسها، ثم بعد لحظات أفاقت بسمة.

وبمجرد أن فتحت عينيها، وضعت كفيَّ أمامها وسألتها: "كم إصبعًا ترين؟" فأجابت: "خمسة"، أدركت أنها أفاقت وقلت لها: "الحمد لله على السلامة يا بسمة. لقد أوقفت قلوبنا." والجميع تنفس الصعداء وهدأ قليلًا.

حادثة قد تبدو بسيطة وخاطفة أمام الأهوال التي تحدث في غزة من موت ودمار وتشريد ومجاعة وغياب أدنى مقومات الحياة، ولكن هذه الحادثة أثرت بي أشد التأثير، لأنني شعرت وكأنها ابنتي. تملكني هذا الشعور، وحزنت وخفت جدًا عليها. كيف تحولت تلك الفتاة الخجولة، التي كانت تخفي نصف جسدها عن الحضور بوضع كرسيها خلف كرسي أمها، إلى جسد بلا إحساس ملقى على الأرض، لا حول له ولا قوة؟ لن أنسى أبدًا نظرتها لي بكل هذا الاستغراب والاندهاش حينما أفاقت، وسألتها كم إصبع في يدي، وأجابت: "خمسة." ودهشتها من والديها وهما يشكرونني على المساعدة الذي لا تعلم هي عنه شيئًا. يبدو أن الأسئلة كانت تتصارع في رأسها: لماذا كانت قدماها مرفوعتين إلى الأعلى حينما أفاقت؟ ولماذا الجميع يلتفون حولها؟ ولماذا يقولون لها: "الحمد لله على السلامة"؟ بعد قليل أخبروها أنها كانت مغمى عليها، وعادت وجنتاها يكسوهما الاحمرار الطبيعي لديها، وعادت الحياة لتدب في أوصالها، وبدأ أهلها يجمعون ما تبعثر من كؤوس الشاي.

يحاولون إيجاد أسباب للإغماء ليس لها علاقة بالمجاعة، مثل: "منذ أيام وهي تعمل بالمطبخ"، "دائمًا تفكر بالحرب"، "طوال الوقت تتابع الأخبار"، أو "دمها ضعيف." فيضعون مليون سبب ويتركون السبب الحقيقي: المجاعة؛ خوفًا من اتهامهم أمامنا أو أمام الآخرين بالتقصير أو البخل. مع أن الجميع فقد الكثير من وزنه وذاق نفس الكأس وتعرض للمجاعة والحرمان، إلا أن الكثيرين يخجلون من البوح صراحة بأن بسمة أُغمي عليها بسبب المجاعة وحالة الفقر الشديد التي طالت معظم الناس، في ظل الارتفاع الجنوني للأسعار وندرة المواد الغذائية.

اعتمد طعام الجميع، إذا توفر، على ثلاثة أصناف تقريبًا: الدقة، العدس، والفلافل، ورغيف خبز للقادرين على شرائه. بلغ سعر كيلو الدقيق أحيانًا حوالي 150 شيكل (50 دولارًا)، أي أن رب الأسرة يحتاج شهريًا إلى 1500–2000 دولار للخبز فقط للحفاظ على الحياة.

سقوط بسمة يعني سقوط العالم. شعرت أن العالم كله تهاوى أمامي مع سقوطها على الأرض. كل شخص يموت في غزة نتيجة المجاعة هو موت لضمير الإنسانية. أي عبث وأي جنون هذا الذي وصل إليه الإنسان من قهر وظلم لأخيه الإنسان؟ حتى الحيوانات في الغابة تراعي بعضها، ولا تفترس إلا حينما تجوع. للأسف، يبدو أن الحيوانات لديها رأفة ببعضها أكثر من كثير من البشر.

بسمة تدرك أنها تهاوت نتيجة الجوع والضعف الشديد، وفور أن أفاقت، أيقنت هي وأهلها أنها دخلت في دائرة من سيموتون إذا لم تتلقَّ الرعاية الخاصة. السؤال: بماذا تفكر بسمة الآن؟ كيف تحولت نظرتها للعالم ولعائلتها ولنفسها ولوطنها وللاحتلال؟ هل هي النظرة نفسها بعد أن وصل بها الحال إلى حافة الموت؟ هل سيظل الخجل والعجز والصمت والحرمان والخوف مسيطرًا عليها؟

أؤكد لكم أن كثيرًا من الأفكار والقناعات قد تحولت في رأس بسمة منذ أن أفاقت من الموت، وليس من الإغماء. هنا غزة، الحياة والموت قريبان جدًا من الروح، فأرواحنا تتأرجح ما بينهما؛ ففي لحظة تفقد تلك الروح، وبنفس اللحظة قد تعيدها. كم هي رخيصة تلك الروح، حتى بتنا لا نملكها أو نتحكم بها.

قد يكون الطيار، ومن يقود طائرة الاستهداف الإسرائيلي، قبل أن يضغط على زر إطلاق الصاروخ وقصف المنزل المليء بالأطفال الجوعى، يتلذذ بقطعة بيتزا أو ساندويش مع قطعة هامبرغر كبيرة. نعم، هكذا أتخيل المنظر: بكل هذا البرود والاسترخاء والصلف وانعدام الإنسانية يتم قتلنا وتجويعنا. التجويع من أقسى أشكال الموت البطيء، الموت المغلف بالجوع والحرمان والقهر والضعف والألم والغضب. نعم، هكذا تكون مشاعر الجوعان، التي خبرتها بنفسي ومررت بكل تلك المشاعر.

هو موت بطيء يتسلل إلى جسدك ويدمر كل أجهزته دون أن تدري، ثم يعلن الجسد أنه انهار ولم يعد يستطيع التحمل والصمود أكثر من ذلك بدون طعام

وتغذية، فينهار. والعجيب أنه إذا دخل الجسم في حالة أنيميا وتهاوى، فمن الصعب أن يعود إلى سابق عهده إلا برعاية خاصة تستمر لشهور. لذلك، إلى الآن، الناس يتساقطون ويتهاوون في الشوارع، حتى بعد وقف الحرب ودخول الكثير من الأطعمة إلى غزة، لكن الفقراء وهم الغالبية العظمى من السكان لا يستطيعون شراء أي شيء من تلك الأطعمة بعد تعرض الجميع، وخاصة خلال المجاعة، للإفلاس بسبب الارتفاع الجنوني في أسعار الدقيق والأطعمة المتوفرة والشحيحة.

حين توقفت الحرب ودخلت الأطعمة من فاكهة ولحوم، كان معظم الناس لا يملكون نقودًا للشراء. ومن الجدير ذكره أن كل تلك البضائع لا تزال باهظة الثمن، ولكن المواطنين يواسون أنفسهم بما كان وبما أصبح. على سبيل المثال، كان سعر كيلو الطماطم مئتي شيكل خلال المجاعة، والآن أصبح 40 شيكلًا، فيشعر المواطن أنه أصبح رخيصًا، ولكن في الحقيقة لا يزال باهظ الثمن. وينطبق نفس المثال على كافة الأشياء؛ فالدجاجة، على سبيل المثال، كان سعرها خلال المجاعة، إن وُجدت، مئتي دولار، وأصبح الآن بعد أن رخص ثمنها 60 دولارًا. والسؤال: من يستطيع شراء الدجاجة بهذا السعر سوى ميسوري الحال؟

الحالة الثانية التي صادفتها كانت قبل أسبوع.

كنت أقف على طابور الخبز أمام مخبز محلي في شارع في المخيم، في مخيم الشاطئ. هو ليس مخبزًا بالمعنى المتعارف عليه، ولكنه فرن أسطواني على مساحة متر، وداخله صينية تدور يوضع عليها أرغفة الخبز، وحينما تدور الأسطوانة دورة كاملة ببطء يكون رغيف الخبز قد نضج.

كان هذا المخبز الوحيد في المخيم، والذي يعمل طوال 24 ساعة بلا توقف، وعدد العاملين به خمسة أشخاص. والمفروض بهذا الشيء المسمى "مخبز" أن يطعم سكان مخيم الشاطئ، الذين كان عددهم قبل الحرب أكثر من مئتي ألف

نسمة، وقد يكون انخفض العدد الآن نتيجة البيوت التي دُمّرت والأعداد الكبيرة من الشهداء والنازحين إلى 150 ألف نسمة.

ظللت واقفًا في طابور الخبز ما يقارب ساعة ونصف، والدمار في كل مكان، والغبار يملأ الشارع. وكالعادة تبدأ الأفكار تتقافز داخل رأسك وأنت تراقب العاملين الذين يعملون بكامل نشاطهم بلا توقف، وطوال الوقت ينظرون إلى طابور المنتظرين الممتد لعشرات الأمتار، وكأنهم يعتذرون منهم ويرسلون رسائل صامتة بمعنى: "ها أنتم تشاهدوننا، لا نألو جهدًا في العمل، ليس بأيدينا شيء نفعله أكثر مما نفعل، صبركم علينا."

تحتار: أتأسى على نفسك والمنتظرين رغيف الخبز الشهي، أم تأسى على العاملين الذين أصبحوا يعملون كالماكينات المبرمجة بلفّ الصاج وسحب الرغيف بسيخ الحديد المعكوف من أمامهم؟ كثيرًا ما يتقدم أشخاص إلى البائع يرجونه أن يبيعهم رغيفًا أو رغيفين وسوف يغادرون الطابور، بسبب عدم قدرتهم أو صبرهم على الانتظار، وحاجتهم حتى ولو لرغيف واحد يسكتون به صراخ معدتهم.

كنت أراقب بصمت وملل، وترددت أكثر من مرة في ترك الطابور، ولكن أنا أيضًا جائع، والعائلة بالانتظار، والجميع بحاجة إلى هذا الخبز، لأنه لا طعام بدون الخبز.

ظللت صامدًا في هذا الطابور كجندي أخطأ فحكم عليه قائده بالوقوف لساعات في الشمس عقابًا له.

وأخيرًا جاء دورنا، وكان الرجل الواقف أمامي في الطابور نحيف الجسد، يرتدي ملابس رثة، ويبدو أنه لم يستحم منذ شهور، حتى إنك لو تفحصت وجهه جيدًا لا تجد به أي ملامح، وكأن من يقف أمامك شبح أو بقايا إنسان. وفجأة، بينما البائع يجهز له كيس الخبز، سقط هذا الرجل مغمىً عليه وارتطم وجهه بحجر من بقايا الدمار المحيط بنا.

أنا شخصيًا فوزًا لعنت الساعة التي وُلدت فيها، وتساءلت: لماذا أنا من يقع الناس بين يديه؟! شعرت أن قلبي يتمزق حزنًا وقهرًا على أبناء شعبي. رفعت وجهه لأرى إن كان ينزف دمًا نتيجة ارتطامه بالحجر، هذا إن كان في جسده المتهاوي بقية كأس دمٍ واحدة. لم أشاهد إلا بعض الخدوش. مددته على الأرض ورفعت قدميه، ثم أفاق.

وطبعًا لم يتبقَّ طابور، فقد عمت الفوضى. تقدمت إلى البائع ورجوته أن يعطي الرجل كيس الخبز، ولكن كانت قد سقطت العشرة شواقل من يده التي كان يستعد لدفعها للبائع. فسأله البائع: "بكم تريد؟" ففرد يده وأجابه: "بعشرة شواقل." ولكن كانت يده فارغة من النقود، فقال لي: "يبدو أن النقود سقطت من يدي." نظرت إلى الأرض فوجدت النقود، قطعتين من فئة خمسة شواقل، وكان هذا من حظه؛ لأن البائع لا يوجد معه "فكة" في ظل الأزمة الخانقة بسبب إلغاء عملة العشرة شواقل، وعدم تقبل أي عملة قديمة أو بها أي خدش أو ثقب بحجم رأس الدبوس.

يبدو أن هناك من يختلق لنا الأزمات، وكأننا بحاجة إلى المزيد منها، أو ينقصنا ما ينغص علينا حياتنا. التعامل بالبيع والشراء في غزة حوّل التسوق إلى نقمة وليس متعة.

في النهاية، أخذ الرجل كيس الخبز وجلس بعيدًا عنا بعدة أمتار، وانزوى يلتهم رغيفًا من الحياة، لعله يستطيع أن يكمل الطريق إلى المنزل ليوصل الخبز إلى أطفاله.

وأنا أيضًا أخذت كيس الخبز الخاص بي وسرت عائدًا إلى منزلي، أراقب شوارع المخيم الذي ترعرعت فيه، وأحاول أن أجد بعضًا من الذكريات وقليلًا من الحلم وسط هذا الدمار الهائل. كان هذا أثقل وأمرّ خبزٍ حملته في حياتي، محمّلًا بالتعب

والقهر ونكبة شعبٍ بأكمله.

في غزة، الرغيف ليس مجرد خبز. هو قلب الحياة، هو الفاصل بين النبض والغياب، بين الصمت والصرخة.

تصطف الصفوف، وجوه متعبة، أجساد مترهلة، عيون تائهة تبحث عن شيء لم يعد يُرى إلا في قطعة خبز. الشمس تحرق الأرض، والغبار يملأ الرئتين، وكل خطوة إلى الأمام هي امتحان للصبر، لكل نفس يلهث بين أمل وخوف.

هناك، في قلب الطابور، يصبح الإنسان شبحًا لنفسه، ينظر حوله ويكتشف أن كل الناس صامتون، لكن صمتهم صاخب، صمتهم يصرخ بالجوع، بالحرمان، بالعبث الذي أصبح حياتنا. يمد أحدهم يده ليأخذ رغيفه، لكنها ترتعش، العملة تتساقط من بين أصابعه كما تتساقط الأرواح في الحروب، كما تسقط الأمنيات بلا سابق إنذار. الخبز يصبح عبئًا، والحياة نفسها تصبح عبئًا. كل رغيف، أو كيس صغير، يحمل معاني أعمق من الكلمات، أعمق من أي معركة، أعمق من أي قصف. من لم يجد خبزه اليوم، يصبح ظلًا يتلاشى بين الدمار، بين صرخات أطفاله، بين أمل لم يولد بعد. ومن وجد، يحمل ثقل العالم على كتفيه، ثقل عبث الحياة، ثقل معرفة أن بقية البشر حوله جياع، وأن الإنسانية ليست إلا شعورًا هشًا وسط كل هذا الخراب.

تمتد اليد لتمنح رغيفًا لمن يحتاج، وكأنك تمنح جزءًا من قلبك، وكأنك تقول: "ابقَ حيًا، إن استطعت." الرغيف هنا هو أكثر من غذاء؛ هو رسالة، صرخة، لمسة إنسانية، وتذكير بأن الحياة تستحق الصمود. وفي تلك اللحظة، بينما تراقب، تسمع صدى الأقدام، صدى القلوب، صدى كل الأرواح التي تنهار وتنهض مرة أخرى.

الخبز هنا يغدو شعلة صغيرة، ونورًا خافتًا في عتمة العبث. والمدينة المحطمة حولك، الغبار على الأرصفة، الدمار في البيوت، كل ذلك يصبح خلفية لمشهد أبدي: الإنسان الذي يقاتل ليعيش، الذي يقف أمام الحياة بلا سلاح سوى أمله،

أمله بالرغيف، أمله بالسلام، أمله بالإنسانية التي ما زالت، رغم كل شيء، تتنفس في قلبه. هنا، يصبح كل رغيف شهادة، كل ابتسامة بعد الإفاقة من الجوع نصرًا صغيرًا، وكل يوم يمر هو انتصار على الموت البطيء. لأن في غزة، بين الفقر والخراب والمجاعة، كل شيء يُختبر، وكل شيء يُعاد تعريفه: الحياة والموت، العبث والوجود، والأمل والقدر.

# أرواح مرتبكة

قبل أن أبدأ بسرد هذه التجربة، أجد نفسي مضطرًا للتوقف قليلًا عند الحالة العامة التي نعيشها، تلك الحالة التي لم تعد استثنائية، بل أصبحت جزءًا من يومياتنا دون أن نشعر. لم تغيّر الحرب الأماكن فقط، بل غيّرت البشر من الداخل؛ أعادت تشكيل مشاعرهم، وكسرت إيقاع حياتهم، وخلقت مساحات واسعة من الصمت داخل النفوس. صرنا نعيش ونؤدي أدوارنا اليومية وكأننا بخير، بينما في الحقيقة هناك شيء ما مكسور في العمق، شيء لا يُرى بسهولة ولا يُقال في جملة عابرة.

كثيرًا ما يسأل بعضنا بعضًا: كيف حالك؟ فنجيب تلقائيًا: الحمد لله، بخير. لم يعد يعكس هذا الجواب الحقيقة، بل أصبح وسيلة دفاع، أو محاولة لتجاوز السؤال دون الغوص في التفاصيل المؤلمة. الحقيقة أن معظم الناس في غزة اليوم يعيشون حالة من الارتباك الداخلي، خليطًا من الصدمة، والإنكار، والتعب النفسي، ومحاولات مستمرة للتماسك. لا أحد يريد أن يبدو ضعيفًا، ولا أحد يملك ترف الانهيار الكامل، لأن الحياة، رغم كل شيء، ما زالت تطالبنا بالاستمرار.

في هذا السياق، تصبح المساحات الآمنة نادرة، والمساحات التي تسمح للإنسان أن يتكلم بصدق أندر. أن تجلس مجموعة من الشباب والشابات معًا، لا ليحللوا الأخبار، ولا ليتبادلوا أرقام الضحايا، بل ليحكوا عن أنفسهم، عن مشاعرهم، عن خساراتهم، عن خوفهم، وعن لحظات الفرح القليلة التي تشبه النجاة؛ هو أمر يبدو بسيطًا، لكنه في واقعنا الحالي فعل عميق التأثير. لا يكون الكلام هنا ترفًا، بل حاجة ملحّة، ومحاولة للترميم، ومحاولة لفهم ما جرى وما يجري.

ليست الكتابة والمسرح والحكاية أدوات فنية فقط، بل وسائل إنقاذ نفسي، وطرق لفتح النوافذ المغلقة في الروح. حين يُمنح الإنسان فرصة أن يروي قصته دون مقاطعة، ودون أحكام، ودون استعجال، تبدأ الأشياء الثقيلة بالتحرك من الداخل. ربما لا تُحل المأساة، ولا يختفي الألم، لكن مجرد الاعتراف به، ومشاركته، يخفف من حدّته.

من هنا جاءت هذه التجربة، لا بوصفها ورشة تدريبية تقليدية، ولا لقاءً أكاديميًا منظمًا، بل مساحة إنسانية قبل كل شيء. مساحة حاولنا فيها أن نعيد تعريف ما يعنيه أن نكون بشرًا وسط كل هذا الخراب، وأن نمنح الأصوات المرتبكة فرصة للخروج إلى النور، حتى وإن خرجت مكسورة، مترددة، أو محملة بالدموع. هذه ليست حكايات منفصلة، بل ملامح من روح جماعية أنهكتها الحرب، وما زالت تحاول أن تجد لنفسها معنى، أو على الأقل متنفسًا.

سأحدثكم اليوم عن تجربة خاصة خضتها قبل شهرين مع مجموعة من الشابات والشبان ما بين سن الثامنة عشرة وسن الأربعين حول كتابة "المونولوج" والقصة القصيرة. كنت، كعادتي، جاهزًا تمامًا للقاء الأول، وأعلم جيدًا ما الذي سأشرحه وأفعله اليوم مع الطلبة. نبدأ كالعادة بالتعارف، ومن ثم أشرح حول "المونولوج" والقصة القصيرة، ولأن الهدف الأخير لهذه الورشة كان سرد قصص عاشوها خلال الحرب وتجميعها وإرسالها إلى المؤسسة الداعمة للنشاط لإصدار كتاب منها إذا كانت بالمستوى الجيد.

كنت في نهاية اللقاء سأجعلهم يتحدثون عن أكثر قصة محزنة أو موقف مؤلم عاشوه خلال الحرب، هذا ما كان في بالي وما كنت أنوي فعله.

ولكنني خلال تجربتي كمخرج ومدرب في المسرح كنت دومًا جاهزًا لتمزيق الأوراق والارتجال والعمل بناءً على المستجدات والظرف الموجود بين يدي، وبالفعل هذا ما حدث. فبمجرد أن انتهوا من التعريف بأنفسهم كان معظمهم متحفزًا للحديث ولديهم رغبة عارمة للبوح وإفراغ الكأس عما يختلج في صدورهم، فقلت لهم: "ما لي أراكم على غير عادة المتدربين في اللقاء الأول الذين يخجلون من الكلام؟ تريدون أن تتحدثوا جميعًا؟ فلتبدأ يا إيهاب، قل ما تريد."

إيهاب هو أحد المتدربين السابقين عندي في المسرح، وهو ممثل جيد، وأخرجت له عدة مسرحيات، فأدَّعي بأني أعرفه جيدًا. ولكن حين بدأ يتحدث عن صديقه

الشهيد الذي شبّه علاقته به بأخيه بل وأكثر من أخ، وحينما أخبرنا بلحظة تلقيه نبأ استشهاده أخذ يبكي بحرقة، وهذه هي المرة الأولى التي رأيته يبكي بها. أدركت أن إيهاب الذي أعرفه ليس هو تلميذي الذي عمل معي بالمسرح أكثر من خمسة عشر عامًا. تركته يبكي ويفرغ كل ما بداخله من حزن.

خلال بكائه كان يقول لي: "هذه أول مرة أبكي فيها على صديقي يا أستاذ." فأجبته: "بل هذه أول مرة أراك تبكي يا إيهاب. ابكِ أخاك، هناك أشخاص يمرون بحياتنا يستحقون أن نبكيهم كثيرًا، وتظل ذكراهم طوال العمر." جفف دموعه وأكمل قصته وذكرياته مع صديقه، وكيف أنه هو أول من علمه العزف على "الأورغ"، وكم من سهرات جميلة وأفراح عزفوا بها وغنوا معًا. بدأت أحاوره حول صديقه حتى أستطيع أن أساعده في تجاوز تلك المحنة. قال لي: "هذه هي المرة الأولى التي أجلس بها مع أحد وأتحدث دون أن يقاطعني، ومع مجموعة تشبهني في التفكير. كنت بحاجة ماسة إلى هذه الورشة، ليس فقط من أجل أن أتعلم كتابة المونولوج، ولكن من أجل أن أجلس معكم وأسمعكم وتسمعوني، بعد أن اكتفيت من سماع صوت الزنانة وأصوات الصواريخ وبكاء الأطفال. من الآن فصاعدًا سوف أعيد تدريب أذني للاستماع للموسيقى الهادئة والكلمات الجميلة."

أخبروني جميعهم بعد ذلك أيضًا أنها الجلسة الأولى بالنسبة لهم التي يجلسون في مجموعة كهذه ويستمعون ويتحدثون كبشر طبيعيين. تعجبت بصدق من هذا الحديث، لأنني طوال الحرب كنت محاطًا بالعائلة وعدد من الأصدقاء، أزورهم ويزورونني، لأنني كنت مدركًا أن الجميع في هذه الظروف بحاجة لأن يؤازروا بعضهم البعض. لا أحب، عادةً، الحزن والدموع، خاصة في اللقاءات الأولى لي مع الطلبة، ولذلك أردت فورًا أن أبدل المزاج العام في اللقاء، وأدركت أنه يجب أيضًا أن أقدم لهم الدعم النفسي الذي يحتاجونه، وبهذا الوضع الذي هم عليه لن يستطيعوا التركيز فيما سوف يتعلمونه في الكتابة الإبداعية.

طلبت منهم فورًا أن يحدثني كل شخص عن أكثر شيء أضحكه أو أسعده خلال الحرب. استمعنا لأول قصة من محمد، وكان بها من المواقف المضحكة أكثر قليلًا مما تحتويه من حزن بداخلها، ولكن تفاجأت من ردة فعل الطلبة وضحكاتهم الهستيرية على قصة محمد، وتعليقاتهم الأكثر سخرية من القصة نفسها، واستمروا في الضحك دون توقف. وطبعًا أنا ضحكت معهم، لأنني أنا أيضًا كنت بحاجة لتلك الأجواء.

ثم حدثتنا عبير عن أكثر شيء أسعدها، والتي فقدت في الحرب زوجها ووالديها، وتعيش الآن وحيدة مع أطفالها الصغار. قالت: "أنا أعيش في مخيم جباليا، وكما تعلمون أن المخيم دُمِّر عن بكرة أبيه، والشوارع اختفت عناوينها من المخيم، كان كل ما يحيط بنا دمارًا. ولكن حينما نزحنا إلى الجنوب وركبنا السيارة، لأول مرة منذ شهور أشاهد طريقًا مسفلتًا وعلى جانبيه أشجار في شارع صلاح الدين، فرحت جدًا أنه لا زال هناك شارع في غزة يحتفظ بجماله ولم يُدَمَّر. أخرجت يدي من شباك السيارة وتركتها تتعرض للهواء، وعدت بذاكرتي لطفولتي حينما كنت أصعد في السيارة مع والدي، ودائمًا كنت أشاكسه أن أخرج يدي من الشباك فينهرني أن أُدْخِل يدي. فجأة قفزت بذاكرتي كل لحظات الطفولة السعيدة حينما كان والدي يصطحبني إلى الأراجيح، وكنت أجلس على الأرجوحة وأمي تدفعني وأنا أتشبث بالحبال لأعلى وأسفل. كنت أشعر بأني أطير في السماء، أحلق بعيدًا بفرحي وسعادتي."

صمتت، وصمتنا معها ننتظر أن تكمل قصتها، فسألتها أن تكمل، فقالت لي: "القصة انتهت." فقلت لها: "ما الذي أسعدك بهذه القصة؟" قالت: "شارع صلاح الدين." فقلت لها: "هل شارع صلاح الدين أسعدك؟" فقالت: "نعم." فأخذ الجميع يضحكون بشدة على حكاية عبير. فقلت لها: "ألم يسعدك خلال الحرب لحظة مع إنسان، لحظة إنسانية حدثت؟" فقالت: "بصراحة يا أستاذ، أنا لم أشعر بالسعادة طوال الحرب دقيقة واحدة، ولكن حين طلبت منا أن نتذكر بدأت

أقلب في ذاكرتي فلم أتذكر شيئًا سوى تلك اللحظات التي كنا نازحين بها إلى الجنوب."

كم أحزنتني قصصهم لإدراكي حجم المأساة التي يعيشها شبابنا وشعبنا. هل يصدق أحد أن هناك شخصًا في هذه الدنيا يمر عليه عامان وأكثر دون أن يبتسم أو شيء يسعد قلبه؟ قلت لعبير: "ألم تضحكي خلال الحرب كلها؟ ألم تفرحي؟" قالت: "لا، ولكن أنا لست حزينة." "ألم تحزني على والديك، على زوجك؟" فقالت: "لا، أشعر أنهم استشهدوا، هم ما زالوا أحياء معنا، حتى إنني لم أبكِهم ولا يخطرون في بالي." قلت لها: "أكنتِ تحبين زوجك؟" قالت: "كنت أعشقه." فقلت: "ولكن كيف لم تحزني عليه؟" قالت: "لأنه لم يمت." أدركت أن لديها إنكارًا تامًا للحادث، ولا تريد إلى الآن أن تصدق أن زوجها ووالديها قد غادرونا.

كانت هناك فتاة تُدعى حنان، لم تكن من ضمن المجموعة، تجلس على كرسي في زاوية الخيمة التي استضافتنا فيها نقابة الصحفيين الفلسطينيين. يبدو أنها كانت تدرس مستخدمةً جهاز الحاسوب المحمول، وكانت تتفاعل مع القصص ومع المجموعة بصمت؛ فرمقتها بنظرة، فوجدتها تضحك بخجل، وأحياناً تبكي وتواري دموعها. وبعد أن أنهينا اللقاء ذهبتُ إليها، وعرّفتها بنفسي، وعرضتُ عليها الانضمام إلى المجموعة، فأجابت فوراً: "لا.. لا"، وتغير لون وجهها في لحظات إلى الحُمرة خجلاً، وبُحَّ صوتها وقالت متلعثمة: "أنا لا أُجيد التحدث، والفتيات والشبان الذين معك جريئون، أما أنا فخجولة ولا أرغب في ذلك." فقلتُ لها: "صدقيني، أنتِ بحاجة إلى هذه الورشة كحاجتهم وأكثر، دعيني أساعدكِ." فقالت: "لا أريد"، ورفضت رفضاً قاطعاً.

وأثناء وقوفي معها، وصل خالها —وهو فنان صديق لي— وقدّمني إليها بأسلوبٍ لائق، ثم قال لي: "هذه ابنة أختي، وهي ذكية جداً، بل كانت الأولى على مدرستها في مرحلة الثانوية العامة." حينها تركتها قائلاً: "فكّري في الأمر، سيكون لقاؤنا القادم هنا يوم الأربعاء، فحبذا لو حضرتِ وانضممتِ إلى

المجموعة." إنني في عملي دائمًا ما أبحث عن الأشخاص الذين يحتاجون فعلياً إلى الدعم النفسي لآخذ بأيديهم نحو التعافي، وقد تمنيتُ من أعماق قلبي أن تأتي يوم الأربعاء؛ لعلّي أتمكن من مساعدتها على تجاوز حجم الصدمات التي كابدتها خلال الحرب.

وبالفعل جاء يوم الأربعاء. وعادةً، أنا أذهب لمكان التدريب قبل الجميع، فوجدتها جالسة على الكرسي قبلي، فسعدت بذلك. وحينما أتى الجميع بدأ لقاؤنا، وكان في ذلك اليوم طلبي من التلاميذ أن يخبروني عن أكثر لحظة محزنة تعرضوا لها خلال الحرب. وطبعًا تحدثت حنان بعد تردد كبير، وروت قصتها عن صديقتها الوحيدة وأم صديقتها التي كانت مثل أمها تمامًا، حيث كانت معظم الوقت، بحكم أنهم جيران، إما أن تكون عندها أو صديقتها تذهب إليها. وفي أحد الأيام تم قصف منزل صديقتها، فاستُشهِدَت هي وكل أفراد عائلتها. لم تعد حنان تستطيع البقاء في منزلها، حيث إنها كانت تجلس كل يوم بجانب ركام المنزل الذي لا زال يحتفظ أسفله بكل جثث العائلة. أحيانًا كثيرة كانت تجلس هناك وتحدث صديقتها لعلها تجيب عليها ولو بكلمة، كانت تتحدث مع أمها الثانية لعلها تسمع صوتها للمرة الأخيرة. ظلت على هذه الحال. كان والداها يحاولان منعها من الجلوس على ركام المنزل، لكن دون فائدة، ونتيجة لذلك عجَّل والداها بالنزوح للجنوب حتى يغادروا المنطقة كلها ويبعدوا ابنتهما عن رفات صديقتها.

وطبعًا أخبرتنا أن منزلهم دُمِّر تمامًا أثناء تواجدهم بالجنوب، وليس منزلهم فحسب، بل كل المنطقة مُسحت عن بكرة أبيها. حدثتنا باستفاضة ساعة كاملة، وهي تتحدث دون توقف، وكانت هذه هي المرة الأولى التي تحكي قصتها منذ الحادث. كان قد انتهى وقت الورشة وتجاوزنا الموعد بنصف ساعة. شكرت حنان على ثقتها بنا ومشاركتنا مشاعرها تجاه صديقتها وأمها.

ما أحاول ذكره هنا ليس مجرد أن أسرد الحكايات، بل أحاول أن أضع القارئ في قلب لحظات من الحياة اليومية التي يعيشها الشباب، وأن تتكون لديه فكرة عن

نفسياتهم وأحوالهم، وكمّ الضغط والمعاناة الذي يعيشونه. ولا أعتقد، ولست متحيزًا فيما أقول، أن هناك شبابًا على سطح الكوكب يعانون ما يعانيه شباب غزة. إنهم يحاولون أن يبحثوا عن أي بصيص أمل يسعدهم، حتى ولو كان شارعًا لا يزال يحتفظ برونقه السابق. أحلامهم بسيطة، ببساطة الضحكة التي فقدوها، وببساطة الدمعة التي جفت.

هناك شيء تغير في الوجوه، وفي نبرة الصوت. أعتقد أن كل من يعيش في غزة الآن مختلف عن باقي سكان الأرض. فهنا أصبح للناس نظرة، ولغة جسد، وصوت مختلف، لا أجد له تفسيرًا. حتى أنني أظن أنه إذا تمكن أهل غزة من السفر خارج الحدود، فسوف يسهل التعرف عليهم؛ إنهم من أهل غزة الذين عاشوا الحرب. قد يستغرب القارئ ما أقول، ولكن بعد الإعلان عن وقف الحرب، كنت أنا وزوجتي في مركز للتسوق، فتوقفت سيارة جيب ونزل منها بعض الأجانب من جنسيات مختلفة تابعين للأمم المتحدة، ومن الواضح من هيئتهم أنهم قادمون إلى غزة حديثًا. فحينما كانوا يتسوقون ويتجولون في المركز التجاري، كان الجميع ينظر إليهم وكأنهم قادمون من كوكب آخر، فظهر الفرق الشاسع بيننا وبينهم، فرق لا أستطيع وصفه.

كانت غزة قبل الحرب مليئة دومًا بالأجانب من كل الجنسيات، لم نشعر في يوم بأي فرق. يبدو أن ما تعرضنا له خلال الحرب لم نعد نحن أنفسنا ندرك أبعاده، وأعتقد أن آثاره ستمتد لعشرات السنين إن لم يكن أكثر. عدت إلى منزلي وبِتُّ أفكر في هؤلاء الشباب، وفي المستقبل الذي ينتظرهم. فالشباب عماد المستقبل كما يقولون. العالم مشغول الآن بقضية الإعمار، ومن سيزيل الركام، ومن سيتكفل بالإعمار، ومن سيشرف على الملف، ولكنني أعتقد أن قبل كل هذا نحن بحاجة إلى إعمار الأنفس، وإعطاء أمل للشباب وللناس في غزة بأنهم يستطيعون العيش بسلام، والتفكير بالغد بدون خوف أو ارتباك وعدم أمان، فبناء الإنسان أصعب كثيرًا من بناء البنيان.

كيف سنعزز صمودهم ونساعدهم على التعافي من كل ما مروا به؟ والسؤال الكبير: ما المستقبل الذي ينتظرهم في ظل غياب المنظومة الحياتية بأكملها؟ في العادة يعمل الشباب في التعليم، وفي الصحة، وفي الشركات العامة والخاصة، وفي التجارة، وفي السياحة، وفي العمران، وفي الفن، وفي الثقافة. لم يبقَ شيء، كل شيء دُمِّر.

مَن يستطيع أن يلوم هؤلاء الشباب إذا فكروا بالخروج من غزة والبحث عن حياة أخرى قد يستطيعون فيها أن يجدوا الفرصة والأمل الذي يبحثون عنه؟

سؤال كبير بحجم الوطن، وأعتقد لا أحد يدَّعي أو يستطيع أن يجيب عليه الآن. لا يزال الناس ينامون ويصحون على نشرات الأخبار منتظرين انفراجة تعيد لغزة حياتها، ولكن لا شيء يحدث إلى الآن. في كل صباح، وحتى بعد الإعلان عن توقف الحرب، نصحو على شهداء جدد وبيوت تُدَمَّر. كلما نقول إن الاحتلال اكتفى من دمنا، يزيد في غطرسته. على مر التاريخ، حينما كانت تنتهي الحروب، كان الجميع دومًا يبحثون عن أي حل دبلوماسي، إلا نحن في غزة. كل العالم يتدخل بنا ويقرر مصيرنا إلا نحن، وكأننا شعب متخلف جاهل لا يستطيع تقرير مصيره، ونحن فينا العلماء والأدباء والفنانون والأطباء والمهندسون. أربعة عشر مليون إنسان فلسطيني، منهم مَن لهم إنجازات وأثّروا في الإنسانية كلها، لا يزالون يحلمون بأن تكون لهم مطلق الحرية والعيش بكرامة مثل باقي شعوب الأرض.

لم أخرج في نهاية هذه التجربة بإجابات جاهزة، ولا بخلاصات مطمئنة، بل خرجت بأسئلة أثقل وأعمق. أدركت أن ما نعيشه ليس مجرد آثار حرب عابرة، بل جرح مفتوح في الوعي والروح، جرح يحتاج إلى وقت طويل، وإلى جهد حقيقي، حتى يبدأ بالتعافي. هؤلاء الشباب الذين جلسوا أمامي، وتكلموا، وبكوا، وضحكوا أحيانًا، لم يكونوا يبحثون عن حلول سحرية، بل عن اعتراف، عن مساحة تُقال فيها الحقيقة دون خوف أو تزييف.

ما رأيته خلال هذه الورشة أكد لي أن الخطر الأكبر لا يكمن فقط في الدمار المادي،

بل في هذا الكمّ الهائل من المشاعر المكبوتة، والقصص غير المحكية، والأحزان المؤجلة. حين لا يجد الإنسان فرصة للتعبير، تتحول الصدمة إلى عبء دائم، يرافقه في كل تفاصيل حياته، ويؤثر في قراراته، وعلاقاته، ونظرته للمستقبل. لذلك، فإن الحديث عن إعادة الإعمار لا يمكن أن يقتصر على الحجارة والطرقات والمباني، بل يجب أن يبدأ من الإنسان نفسه، من إعادة بناء ثقته بالحياة، وبالغد، وبذاته.
لا تنقص الشباب في غزة الإرادة، ولا الذكاء، ولا القدرة على الإبداع، لكنهم يعيشون في واقع يستهلك طاقتهم النفسية قبل أي شيء آخر. هم محاصرون بالخوف، وبغياب الأفق، وبشعور دائم بعدم الأمان. ومع ذلك، لا يزالون يحاولون، كل بطريقته، أن يتمسكوا بشيء يشبه الأمل، حتى لو كان هشًا، بسيطًا، أو مؤقتًا.

جعلتني
هذه التجربة أؤمن أكثر بأن الاستثمار الحقيقي يجب أن يكون في الإنسان، وفي الصحة النفسية، وفي الثقافة، وفي الفن، وفي خلق مساحات آمنة للحوار والتعبير. لأن بناء الإنسان هو الأساس لأي نهوض حقيقي، وهو الطريق الوحيد لكسر دائرة العنف والدمار المتكرر.

قد لا نملك اليوم إجابات واضحة عن مستقبل غزة، ولا عن مصير شبابها، لكننا نملك القدرة على الإصغاء، وعلى الاحتواء، وعلى الاعتراف بالألم بدل تجاهله. وربما يكون هذا، في هذه المرحلة، أهم ما يمكن فعله. أن نُبقي الباب مفتوحًا للكلام، وأن نمنح الأرواح المرتبكة فرصة لترتيب فوضاها، كخطوة صغيرة نحو الشفاء، في طريق طويل، لكنه ضروري.

وربما لا يُطلب في هذه المرحلة أكثر من هذا الفعل البسيط: أن نبقى حاضرين لبعضنا بعضًا، وأن نمنح أنفسنا الحق في التعب، وفي البكاء، وفي التردّد. فالتعافي لا يأتي دفعةً واحدة، بل يتشكّل من لحظاتٍ صغيرة من الصدق والإنصات. وحين يجد الإنسان من يصغي إليه حقًا، يبدأ شيئًا فشيئًا في استعادة صوته، ومع صوته يستعيد جزءًا من ذاته التي حاولت الحرب محوها.

# "فريزر"

حين تتحول الخيمة من حلٍّ مؤقت إلى قَدَرٍ طويل الأمد، وحين يصبح المطر امتحانًا للبقاء لا علامة خير، تتبدل علاقة الإنسان بالطبيعة وبنفسه معًا. كُتب هذا النص من لحظة خوف حقيقية، من داخل مدينة أنهكتها الحرب حتى صارت عاجزة عن مواجهة أبسط قوانين الحياة. هو ليس توصيفًا لمنخفض جوي، ولا سردًا لحالة طقس قاسية، بل محاولة للاقتراب من التجربة الإنسانية العارية حين يُترك الناس بلا حماية، يواجهون البرد والماء والريح بأجسادهم فقط.

في غزة، لا يأتي الشتاء وحده، بل يصطحب معه ذاكرة ثقيلة من الخيام، والنزوح، والفقد، ويوقظ أسئلة لا تجد إجاباتها: من يحمي من لا بيت له؟ ومن يسمع صوت من يغرق في العتمة؟ ينقل هذا النص مشاهد عابرة لكنها جارحة، لحظات يختلط فيها الخوف بالعجز، ويصبح الاطمئنان ترفًا بعيد المنال. إنه صوت إنسان يرى المأساة تتكرر، ويشعر بأن الزمن يدور في حلقة مغلقة، وكأن التاريخ يُصِرّ على إعادة نفسه بصيغ أكثر قسوة.

لا يسعى هذا النص إلى إثارة التعاطف السريع، ولا إلى استجداء الانتباه، بل إلى تسجيل شهادة صادقة عن واقع يتجاوز الاحتمال. هنا تُكتب الحكاية من موقع المراقب المتورط، الذي لا يستطيع الانسحاب ولا يملك القدرة على التغيير، فيكتفي بالكلمات بوصفها آخر ما تبقى من أدوات النجاة. هي مقدمة لدخول عالمٍ يصبح فيه المطر خطرًا، والصمت خيانة، والكتابة فعلاً أخيرًا في مواجهة النسيان.

تتملكني منذ أيام حالة من القلق والحزن. نعم، فالأخبار التي تَرِدُ حول شدة المنخفض القادم لا تطمئن القلب. فالخيام المنتشرة على مرمى البصر وفي كل زاوية في غزة الممتلئة بالنازحين الذين فقدوا بيوتهم تجعلني لا أستطيع النوم. هذه الخيام مجرد قطع من القماش لا تقي من حر ولا تحمي من برد. فكانت الخيمة دومًا مرتبطة بذاكرتنا – نحن سكان الساحل – بأن ننصبها على شاطئ البحر لبضع ساعات فقط حتى تسترنا حينما نُبَدِّلُ ثيابنا المبتلة. لم يخطر على بال أحد من سكان غزة أنه سيأتي علينا يوم ونشاهد تلك الخيام على مرمى البصر وكأنها غابة ممتلئة عن آخرها بالقهر والخذلان.

هناك نازحون فقدوا بيوتهم منذ بداية الحرب ولا زالوا يتنقلون بتلك النكبة من مكان إلى آخر منذ عامين. نعم، أشبهها بالنكبة؛ لأن الخيمة كانت مرتبطة بذاكرتنا بنكبة سنة 1948، وكأن التاريخ تم اختصاره ما بين نكبتين، مع الفارق بأن النكبة الثانية أكثر وجعًا وقهرًا وخذلانًا.

كنت أستمع إلى الراصد الجوي وكان يقول إن المنخفض القادم هو الأشد منذ سنين، وحَمَى الله غزة وأهل غزة. زاد خوفي ورعبي على الناس؛ فالمنخفض سيبدأ يوم الأربعاء 2025/12/10، وسيصل لقمة عنفوانه ليلة يوم الخميس، وسترتفع أمواج البحر. تخيلت الخيام المنصوبة مباشرة على الشاطئ: ماذا سيحدث لهم؟ لو جرفتهم الأمواج، فَمَنْ سينقذهم؟ لا أعتقد أن أحدًا يستطيع المساعدة إذا حدث ارتفاع الموج ليلًا، فالجميع سيكون مغلقًا باب منزله أو مُحكِمًا إغلاق خيمته، ولن يصل صوت صراخهم أبعد من مكانهم. العالم كله يحذر من نكبة قد تنزل على رؤوس كل من بالخيام ولا أحد يفعل شيئًا. الجميع في غزة – من بلديات وتنظيمات ومسؤولين ومجتمع مدني وحكومات – يُنَاشِدُون: "أنجدوا النازحين بالخيام قبل دخول المنخفض وحدوث ما لا يُحمد عقباه." مَن يناشدون؟ وبمَن يستنجدون إذا كانوا هم المسؤولين عن غزة؟ أدركت أن لا أحد لهم، وأنهم تُرِكُوا ليواجهوا مصيرهم.

خرجت يومها من المنزل لأجد طريقة كي أساعد بعض الناس ولو قليلًا. ولكن حينما وصلت أول تجمع للخيام، وليس بعيدًا عن منزلي، وجدت بعض الرجال والنساء يستعدون للمنخفض بأن يضعوا حجرًا صغيرًا على أطراف الخيمة من هنا أو هناك، وآخر يضع كيسًا من الرمل على أطراف خيمته، وآخر يحاول أن يغلق الفتحات المتمزقة في الخيمة. مجرد أفعال يقومون بها لكي يقنعوا أنفسهم أنهم قاموا بما يجب حتى يحموا عائلاتهم. تمنيت وقتها لو تمكنت من استضافة بعضهم في منزلي، ولكن للأسف منزلي أيضًا ممتلئ عن آخره بعد أن دُمِّرَت منازل بناتي وانتقلن للعيش عندي.

أكملت المسير، وتوجهت باتجاه الجنوب من المدينة وشاهدت مجموعة من الخيام موضوعة في مكان منخفض عن مستوى الأرض وكأنها حفرة، فاستغربت من بقائهم حتى الآن في هذا المكان المعرض للغرق، ولكن يبدو أنه لم يعد هناك متر واحد في غزة فارغ لكي يضع أحدهم خيمته به. عدت أدراجي إلى المنزل محملًا بالكوابيس وبالعجز. كان وجهي متجهمًا، سألتني زوجتي: "ماذا هناك؟ وجهك مختلف،" فقلت لها: "أخبار المنخفض لا تطمئن،" فقالت: "يا رجل، منذ يومين لم تنم وكأنك مسؤول عن البلد،" فقلت ساخرًا: "يبدو أنني لو كنت مسؤولًا لنمت بعمق."

أقبل الليل وبدأ المنخفض وبدأ تساقط المطر. أول ما فكرت به ابنتي التي تسكن على السطح هي وأبناؤها في غرفة تم قصفها وسقفها مفتوح على مساحة مترين. فأرسلت لها رسالة عبر الجوال أن تنزل هي وعائلتها إلى شقتي حتى يتجنبوا المياه والبرد وينتهي المنخفض. فنزلوا جميعًا ووجدوا لأنفسهم مساحة في الصالون، وضعوا فراشهم بها وناموا، ولكنني لم يَغْفُ لي جفن. بقيت حتى الصباح أشاهد الفيديوهات التي تُنَشَرُ تباعًا على "تيك توك" ويتم تصويرها من أماكن الأحداث. كيف أنام؟ وأول فيديو شاهدته لخمسة أطفال يتشبثون بجدار خيمة والمياه تعلو صدورهم ووالدهم يصيح: "أين أخوكم؟ أين أخوكم؟" ويرددها وكأن المياه ابتلعته وذهبت به بعيدًا.

تصفحت "تيك توك"، كان فيديو لرجل يصرخ قهرًا وهو يحمل طفله المبتل تمامًا مناشدًا العالم ويقول: "ابني لديه مرض صدري، وهذا البرد والخيمة التي أصبحت أشد برودة من مُجَمِّد الثلاجة ستقتله،" وصرخ: "أين العالم؟ أين المسؤولون؟ أين الضمير؟ أبنائي سيموتون وأنا عاجز عن فعل أي شيء لهم، كل ملابسنا وأشيائنا جرفتها المياه، لم يبق لنا شيء." وأنهى رسالته صارخًا: "أين العالم؟"

تصفحت صفحات "تيك توك" وشاهدت منظرًا كأنه جهنم من ماء وهواء لمئات الخيام التي ابْتُلِعَتْ وتمزقت واقتلعت من أماكنها. شعرت برأسي سيتفجر وسألت نفسي: هل نحن بشر كباقي البشر؟ ألا عالم ينظر إلينا؟ ألا يشاهدون

تلك الصور؟ لقد مات خلال المنخفض أكثر من عشرين شخصًا، وهذا غير مئات الإصابات وآلاف الحالات الذين أصيبوا بنزلات البرد. لقد اقتلعت 58,000 خيمة حسب لجنة الإحصاء، وأصبح أصحابها بالعراء. تذكرت مقولة محمود درويش: "يا وَحْدَنا"، إن الأمر كذلك. لا أحد ينظر إلينا. يبدو أنه حتى لو مات مليون شخص ليلتها سيفيق العالم في اليوم التالي متأثرًا حزينًا غاضبًا منددًا، ثم يذهب الجميع إلى أعمالهم ويرتشفون قهوتهم ويتابعون الأخبار أو مباريات كأس العرب. كانت الحالات الإنسانية والكوارث والمناشدات التي كانت تُبَثُّ عبر الأخبار عما فعله المنخفض في غزة وانهيار العشرات من المباني لا توصف.

حسب نشرات الأخبار، كان من المتوقع أن ينتهي المنخفض يوم الجمعة. كان ينبغي أن أذهب إلى الجنوب يوم السبت، لكنني انتظرت قليلًا حتى يهدأ المنخفض، ثم ذهبت يوم الإثنين. كان الجو في الصباح مشمسًا، ولكن عند الساعة الحادية عشرة بدأ المطر يهطل بغزارة، وكأن السماء تحولت إلى وعاء كبير ممتلئ بالماء يسكبه على الأرض. مطر لا يتوقف، وهذا يعني غرق خيام جديدة. أنهيت عملي الذي ذهبت من أجله وعدت والدنيا تصب جام غضبها على النازحين.

كنت أركب في مقطورة تسحبها سيارة، تشبه مقطورة الأبقار، بها مقعدان متقابلان ومغطاة بشادر جلدي، مفتوحة من جانبها الأمامي بفتحة على شكل نافذة لتدخل الهواء. جلسنا في تلك المقطورة على مقعدين متقابلين، كل مقعد يتسع لستة أشخاص. سارت بنا السيارة على طريق البحر، وكان الطريق في معظمه أشبه بنهر، وكنا نخشى أن تتعطل السيارة أو ينطفئ محركها وسط هذا السيل من الأمطار فوقنا وأسفلنا.

كنت أراقب بعض الخيام التي طارت وأخرى غرقت، وكانت مصيبتنا أنه كلما أسرع السائق قليلًا، أغرقنا المطر القادم من فتحة النافذة الموجودة في المقطورة، وكان لي النصيب الأكبر من تلك الأمطار التي كانت تتطاير على وجهي كأنها لسعات سياط باردة. أصبحت المقطورة أشد برودة من "الفريزر"، وأصبحت أقطر ماء من رأسي حتى قدمي، حتى ملابسي الداخلية ابتلت تمامًا. أنا عادةً شخص

لا يحب فصل الشتاء ولا يحب البرد، وأسوأ فصل في السنة بالنسبة لي هو الشتاء، لأنه مرتبط بذاكرتي بالبرد القارس الذي كنت أعانيه في منزلنا القديم في المخيم، حيث كان ذلك المنزل يدلف بالماء من كل مكان. ومع ذلك، لم أغضب من ابتلال ملابسي أو برودة المقطورة، بل شعرت أن ذلك نوع من التضامن مع أبناء شعبي النازحين في خيامهم.

طوال الطريق المرعب الذي كنا نسير فيه بصعوبة، لأن غزة غرقت بالمعنى الحرفي للكلمة، وقبل أن نصل إلى منطقة الميناء وتحديدًا بالقرب من منطقة النابلسي، واجهنا شلالًا من المياه أغرق عددًا كبيرًا من الخيام. كانت الأمهات تحمل أبناءهن، والآباء يحملون ما استطاعوا إنقاذه من متعلقاتهم، ويسيرون وسط المياه بصعوبة والأمطار فوق رؤوسهم، وكأنهم في قلب الجحيم. أراد السائق الالتفاف ليذهب من طريق جانبي بسبب ارتفاع المياه على الطريق، وحين دخلنا إلى الطريق الجانبي، توقف قبل أن نتوغل فيه بعدة أمتار، إذ رأينا أن الطريق بعد أن جرفته السيول أصبح أشبه بمدرج روماني، من المستحيل أن يصلح لشيء، لا للسيارات ولا حتى للمشاة. لم يبق أمامنا سوى أن نعود إلى بركة المياه ونجازف، فإما أن ينطفئ المحرك وسط البركة أو نمر. عاد السائق ببطء وأخذ يسير، وقلوبنا ترتجف من هول المنظر. كانت المياه أسفلنا تتدفق على الجانبين، ولا تزال الناس تسير وسط هذا الشلال من المياه، وكانت تسبقنا بضع سيارات تسير ببطء شديد.

كان الخوف يحيط بنا من كل اتجاه؛ خوفنا من أن تتعطل سيارة من التي أمامنا فتغلق الطريق ونضطر للتوقف، وهذا يعني أن السيارة التي نركبها ستغرق بالمياه وتتوقف. كان منظر الأطفال يقطع أوصال قلبي أكثر من البرد الشديد الذي أشعر به. لا يزال المطر المتطاير من فتحة النافذة ينخر في وجهي وكل جسدي. المشهد والحالة أصبحا كأنهما فيلم رعب؛ شجر النخيل على جانب الطريق يكاد يُقتلع من شدة الرياح، والخيام تتحرك وقماشها يتمزق ويتطاير للأعلى وكأنها تستعد للإقلاع برحلتها الأخيرة مجهولة العنوان. أراقب المنظر بخوف ووجع من شدة البرودة، وبالفعل طارت بعض الخيام إلى أعلى السماء وكأن الشياطين ابتلعتها ولم نعد نراها. ثم تلا ذلك صوت صراخ النساء والرجال وصياح الأطفال

الذي اخترق أصوات البرق والرعد، وتعالى صوت تساقط المطر وزمامير السيارات، لكن صوت استنجاد الناس كان أعلى من كل الأصوات.

بدأ الناس الذين فقدوا خيامهم يركضون في كل اتجاه بحثًا عن أي مكان يحميهم من المطر. كانت سيارتنا ممتلئة عن آخرها بالركاب، وكدت أسمع دقات قلب الرجل الجالس بجانبي من شدة خوفه من تعطل سيارتنا التي لا تزال تسير ببطء شديد. يتملك الخوف الجميع، وكلنا نفكر في حال توقفت السيارة ماذا سنفعل. كنت قد اتخذت قراري بأنه إذا تعطلت، فسأنزل فورًا وأسير وسط المياه حتى أجد مكانًا احتمي به، وآخرون ربما قرروا البقاء في السيارة. وأخيرًا اجتزنا المنطقة المنخفضة وخرجت السيارة سالمة.

كان رجل يحمل أطفاله الثلاثة على رقبته؛ يجلس طفل على كتفيه، ويحمل طفلين آخرين بكلتا يديه، ويسير مسرعًا بهم ويحاول أن يهدئ من روعهم بقوله: "اوشكنا على الوصول." يبدو أنه من النازحين الذين طارت خيامهم. فقلت في نفسي: إلى أين سيصل هذا الرجل؟ فهو قبل دقائق فقط كان يحتمي بخيمته التي حلقت بعيدًا وكأنها هي الأخرى تريد أن تهرب من كل هذا العذاب. "اسكتوا يا أبنائي، اصبروا، قريبًا سنصل." كانت ملابسهم تلتصق بأجسادهم وتقطر ماء، وكان الأطفال يبكون بشدة، لكنني لم أرَ الدموع في عيونهم، لا أدري إن كانت امتزجت بمياه المطر أم امتنعت عن النزول من شدة البرد.

كانت النساء تحمل بعض أواني الطهي البائسة التي استطعن انتشالها من وسط هذا النهر الجارف. لم يكن إحساسي خاطئًا حين لم أتمكن من النوم منذ ثلاثة أيام بسبب خوفي الشديد من هذا المنخفض اللعين. وجدت نفسي في قلب الكابوس، أشاركهم عذابه. كثيرًا ما أشعر أن الثقافة لعنة تصيب أصحابها، وأن الإنسانية تعذبهم، لأنك تبدأ بطرح آلاف الأسئلة داخل عقلك حول العدالة والظلم والرحمة والإجرام والإنسانية وحقوق الإنسان والمساواة. كاد رأسي ينفجر وأنا أنظر إلى الناس التي تتحرك في كل اتجاه لا تعرف أين تذهب. لا أبالغ إن قلت إن رحلة العودة من الجنوب إلى البيت في هذه المركبة كانت من أسوأ

لحظات حياتي. الطريق لا تنتهي، وكأن السيارة تتحرك في مكانها. في الظروف الطبيعية، المسافة بين دير البلح وغزة لا تتجاوز ثلاثين دقيقة، وبعد الحرب ونتيجة تكسر الطرقات أصبحت ساعة على الأقل، لكننا نسير منذ ساعتين ولا زلنا قرب ميناء الصيادين في شتاء لا يتوقف. وللعلم، مياه الأمطار التي تسقط عليك من فتحة سيارة تتحرك أصعب بكثير من السير على قدميك تحت المطر، فالأمطار التي تأتي من فتحة النافذة كانت تسقط على وجهي كأن شخصًا ما يلتقطها ويقذفها بكل قوته. كدت أن أفقد صوابي، وفي النهاية تبرع شاب بأن أجلس بجانبه ليحميني من قسوة المطر.

ظلت السيارة تشق الشوارع المحطمة وتجتاز الطرقات التي لا يوجد بها متر واحد سالم في مدينة غزة، كل شيء أصابه الدمار كنفوس الناس التي بلغ منها الأسى مبلغه. وأخيرًا وصلنا إلى المجلس التشريعي، أو ما كان يسمى المجلس التشريعي، لأنه مُسح عن الخارطة، وأصبح بجواره نقطة تجمع سيارات لتوصيل الركاب. أنزلني السائق وسط شلال المياه، وصرت مباشرة تحت زخات المطر لا أجد مكانًا يحميني. وقفت متسمّرًا في مكاني أنتظر سيارة قادمة لعلها تقلني، وفجأة أتت حافلة كبيرة تتسع لخمسين راكبًا وتوقفت بجانبي، وفتح السائق الباب لكي أركب وأحتمي من الأمطار، لكن لا أدري كيف انشقت الأرض وخرج كل هؤلاء الناس أطفال ونساء وشباب ورجال، ووجدت نفسي أُدفع دفعًا داخل الحافلة من شدة الازدحام. جلست ولأول مرة منذ ساعات، تنفست قليلًا.

بعد دقائق أنزلني السائق في نقطة قريبة من منزلي، لكنها كانت أشبه بنهر جارف، وهي الفاصل بين وصولي للمنزل وبين المنطقة التي أقف بها. بقيت واقفًا عدة دقائق حتى أتى سائق، ودفعت له مقابل أن يجتاز بي الشارع إلى الجهة المقابلة ويقطع النهر. قطعت المسافة التي لا تتجاوز عشرين مترًا، ثم توجهت مسرعًا إلى المنزل، وبدلت ملابسي التي كانت كلها تقطر ماء، نشفت جسدي وارتديت ملابس جديدة، وتمددت على السرير أرتجف، وطلبت من زوجتي أن تضع فوقي غطاء آخر. أتت زوجتي تنظر إليّ مندهشة وخائفة من أن أصاب بنزلة برد، وهي تعلم أنه لا توجد لدي مناعة للبرد.

جلست بجانبي لأخبرها ماذا حدث معي لأن حالتي كان يُرثى لها، لكنني أخبرتها عن الأطفال وبكائهم الشديد، وعن غضب الطبيعة على خيام النازحين وآلاف الناس الذين لا زالوا في الشوارع يسيرون تحت المطر، ولا أعلم يا زوجتي إن كان ذلك الرجل وصل أم لم يصل بعد. فسألتني: أي رجل هذا؟ فقلت لها: لا عليكِ، لا أريد أن أشغل بالك.

كانت الطريق في الحافلة طويلة جدًا، محمّلة بكل عذابات شعبنا، ومن الواضح أننا سنحتاج لسنوات حتى ترسو سفننا في الميناء. في تلك الليلة، حين أغلقت باب المنزل أخيرًا، لم أشعر بأنني وصلت إلى مكان آمن، بل شعرت فقط أنني نجوت مؤقتًا. النجاة هنا لا تعني الخلاص، بل تعني أنك خرجت من مشهد لتدخل في آخر يسكن رأسك ولا يغادرك. تمددت على السرير وجسدي يرتجف، لكن ما كان ينهشني لم يكن البرد وحده، بل صور الوجوه التي تركتها في الشارع، والأصوات التي ما زالت عالقة في أذني، وصوت المطر الذي لم يعد موسيقى شتوية، بل إنذارًا مفتوحًا بالفقد.

أدركت أن الكارثة الحقيقية لا تكمن في المنخفض ولا في غضب الطبيعة، بل في هذا الاعتياد القاسي على الألم، وفي فكرة أن ما حدث الليلة قد يتكرر غدًا، وبعد غد، دون أن يتغير شيء. الخيام ستبقى خيامًا، والأطفال سيكبرون وهم يعرفون الخوف قبل اللعب، والناس ستظل تبحث عن مأوى لا يسقط مع أول ريح. أما العالم، فسيواصل مراقبته من بعيد، يكتفي بالتعليقات، ثم يطوي الصفحة.

في غزة، لا تنتهي القصص عند نهايات واضحة، بل تظل مفتوحة على احتمالات أكثر قسوة. لا توجد خاتمة مريحة لهذا النص، كما لا توجد خاتمة عادلة لهذه الحكاية. كل ما هناك بشر يحاولون أن يصمدوا يومًا إضافيًا، وأن ينجوا بذاكرتهم من التآكل، وأن يحتفظوا بشيء يشبه الكرامة وسط هذا الخراب.

حين أغمضت عيني أخيرًا، لم أدعُ أن يتوقف المطر فقط، بل دعوت ألا يعتاد قلبي على هذا المشهد، وألا يصبح البؤس عاديًا، ولا الخيمة وطنًا دائمًا، ولا

الصمت قدرًا. لأن أخطر ما قد يحدث لنا ليس أن نغرق في الماء، بل أن نغرق في اللامبالاة، وأن ننسى أن ما نعيشه ليس طبيعيًا، ولا يجب أن يكون كذلك.

وسط كل هذا المشهد الثقيل، يبقى السؤال معلقًا دون إجابة: كيف يمكن للإنسان أن يحافظ على إنسانيته وهو يُساق يوميًا إلى حافة الاحتمال؟ في غزة، لا يُقاس الصمود بالشعارات ولا بالقدرة على التحمل فقط، بل بتلك المحاولات الصغيرة للبقاء واقفًا نفسيًا، رغم الانكسار. الناس هنا لا يطلبون المعجزات، بل الحد الأدنى من الأمان، سقف لا يتطاير، وليل يمكن أن يمر دون خوف. لكن الواقع يفرض معادلة قاسية؛ أن تعيش وأنت تعلم أن الخطر لا يأتيك فقط من السماء أو البحر، بل من غياب العدالة، ومن شعورك بأن حياتك قابلة للتأجيل أو النسيان. تترك هذه اللحظات، مهما بدت عابرة، أثرها العميق في الذاكرة، وتعيد تشكيل علاقة الإنسان بنفسه وبالعالم. وربما لهذا السبب، يصبح الكلام ضرورة، لا ترفًا، ومحاولة أخيرة لتثبيت الحقيقة قبل أن يبتلعها الاعتياد، وقبل أن يتحول الألم إلى رقم، أو إلى خبر عابر لا يتوقف عنده أحد.

# سعادة

في أزمنة الحروب، تفقد الكلمات معانيها الأولى، وتُعاد صياغة المفاهيم البسيطة بطريقة قاسية ومربكة. السعادة، ذلك الشعور الذي اعتدنا أن نربطه بالطمأنينة والوفرة والضحك الخالي من الخوف، يتحول في واقع مثقل بالدمار إلى فكرة ملتبسة، بل إلى سؤال أخلاقي أحيانًا: هل يحق لنا أن نضحك وسط هذا الكم من الألم؟ لا يحاول هذا النص تبرير الضحك، ولا تزيين المأساة، بل يسعى إلى الاقتراب من الإنسان كما هو في لحظات ضعفه، وتناقضه، وصدقه العاري. هو محاولة لتوثيق ما لا يُوثق عادة: التفاصيل الصغيرة التي تُبقي البشر أحياء نفسيًا وسط الخراب، واللحظات العابرة التي تشبه السعادة دون أن تكون كذلك تمامًا. هنا تُروى الحكايات لا بوصفها قصصًا مضحكة، بل كشهادات على قدرة الإنسان على التشبث بالحياة، حتى وهو محاصر بالفقد والجوع والخوف والذاكرة الثقيلة.

قلت لأصدقائي حين اجتمعنا لأول مرة بعد انتهاء الحرب: "تعبنا من الحزن والبكاء، دعونا نبتسم." فقالوا: "كيف نبتسم وكل ما في الحرب لا يوجد فيه سوى الألم والحزن؟" فأجبتهم: "لا بد أن تكون هناك ابتسامة أو لحظة شعرت فيها بالسعادة يومًا ما، في لحظة ما." قال معظمهم: "لا نتذكر." فأجبتهم: "ابحثوا عميقًا في ذاكرتكم، في خيالكم، لا بد أن تجدوا تلك الابتسامة." قال محمد: "أنا عندي قصة حدثت معي في بداية الحرب، لكنها مخجلة، أرجوكم لا تضحكوا علي." فقلنا له: "كيف هذا؟ نحن نلعب من أجل الضحك، إذا كانت مخزية لهذه الدرجة لا ترويها." فقال متحديًا: "سأرويها نكاية بكم." فقلنا له: "ذنبك على جنبك."

قال محمد: "يا سادة، في أول الحرب كنت نائمًا في البيت في سابع نومة، أرتدي سروالًا قصيرًا وقميصًا داخليًا، وأغلق باب الغرفة، ولا أشعر بالدنيا وما فيها. فجأة، طرق الباب أحدهم وقال: افتح، جيش! فتحت الباب، فوجدت البيت كله مليئًا بجنود الاحتلال. أنزلوني ضربًا وحملوني ورموني في شاحنة جنود. أول ما صعدت إلى الشاحنة وارتميت على أرضيتها الحديدية، شعرت ببرودة الدنيا، لم أكن أشعر بكل هذا البرد وأنا نائم في غرفتي الدافئة. بدأت أرتجف من شدة

البرد، كأنهم رموني في مجمّد ثلاجة. صار الجنود يجمعون الشبان ويرمونهم في الشاحنة، وبعد قليل أصبحنا نحو أربعين شخصًا فوق بعضنا، وانطلقت بنا الشاحنة. في البداية، كانت الأفكار تتصارع في رأسي: هل سيأخذوننا إلى مكان بعيد ويطلقون النار علينا؟ أم سيأخذوننا إلى المعتقل؟ تمنيت أن يعتقلوني. كلما أسرعت الشاحنة، صار الهواء أشد برودة، لا يوجد شادر يحمينا من الهواء، والبرد ينخر في عظامي، كدت أن أتجمد. لم أعد أفكر أو يهمني إن كنت ذاهبًا إلى المعتقل أم سيطلقون النار على رأسي ويعدمونني، صار كل تفكيري في البرد الذي يمزق أوصالي كالسكاكين الحادة، حتى الهواء الذي أتنفسه كان باردًا ومؤلمًا. كانت أرضية الشاحنة المصنوعة من الحديد كأنها ألواح ثلج قادمة من سيبيريا. وفجأة شعرت بدفء يتسلل من أطرافي إلى كل جسدي، وبدأت أشعر بالراحة. في البداية لم أعرف سر هذا الدفء، لكنني شككت من رائحته، فسألت الشاب الذي بجانبي: هل تبولت؟ فأجابني بأسنان مصطكة وشفاه مرتجفة من شدة البرد، وترجاني أن أستر عليه، وقال إنه لم يتمالك نفسه من شدة البرد والخوف، وبأنه بال عليّ خارج إرادته، وكان خجولًا جدًا. فأخبرته: لا عليك، وفي نفسي، تمنيت لو طالت فترة التبول حتى أشعر بالدفء أكثر، لأن البرد كاد يقتلني. قد تكون أكثر المواقف التي تكرهها ولا تتخيل أن تحدث معك، لكنها في لحظة ما تنقذك، ومواقف أخرى قد تعتقد أنها ستسعدك تقتلك. استمرت الشاحنة تسير بنا حتى وصلنا إلى السجن، وضعوني فيه، وخرجت بعد عام ونصف لأجد نفسي وسط المجاعة."

كثيرة هي التناقضات في غزة، وجميعنا نمارسها ولا نعلم لماذا. ربما يسأل القارئ نفسه: ما المضحك في تلك القصة؟ أصبح لدى الناس في غزة مستوى عالٍ من السخرية من كل شيء بعدما فقد معظم سكانها كل شيء، لأننا طوال سنوات الحرب كنا نهرب من حفرة صغيرة فنسقط في حفرة أكبر منها. أكثر من عامين ونحن نتنقل بين أحزاننا، مرة نركب سفينة النزوح، ومرة نمتطي حصان الموت، وكأن الدنيا قامت قيامتها ولم تسكن ولم تستكين إلى الآن. العيون

حائـرة، والخطـوات مرتبكـة، والأفـكار ملتبسـة، كل شـيء موضـع شـك.

ولكننا نبحـث، فـي وسـط كل هـذا، عـن الحياة؛ حياة تشـبه الحياة. نحـاول أن نضحـك. انتهـت الحـرب، لقـد نسـينا الضحـك. أثنـاء سـرد محمـد حكايتـه ضحكنـا مـن القلـب، ضحـك كلهفـة أمٍّ تنتظـر لقـاء ابنهـا بعـد غيـاب سـنوات، أو فلاحٍ يتلهـف لسـقوط المطـر علـى تربتـه اليابسـة. كثيـرة هـي الأشـياء التـي تيبـس وتتشـقّق غيـر الأرض؛ الشـفاه، والمشـاعر تتبلـد. وبعـد أن يصبـح المـوت مشـهدًا طبيعيًـا نشـاهده كل يـوم، يصبـح كل مـا دون هـذا العنـوان طبيعيًـا.

تلقفنا قصة محمد كأنها هبة من السماء، حتى نحاول إعادة صياغة أرواحنا. ضحكنا من القلب حتى سالت دموع الفرح التي كانت محتجزة في عيوننا منذ بداية الحرب، ففتحت شهيتنا للضحك، كشهيتنا خلال المجاعة لطبق كنافة نابلسية. بدأ الجميع يريد أن يلتهم من هذا الطبق ويروي حكايته المضحكة أو الخاصة. فصمّم إيهاب أن يحكي، فقال:

"فـي يـومٍ مـا، غـادرت كـي أبحـث عـن الحطـب لإشـعال النـار للطهـي. ذهبـت إلـى منطقـة كثيفـة الأشـجار بجوارنـا، وأثنـاء بحثـي وجمعـي للحطـب وجـدت أسـورة ثقيلـة مـن الذهـب تنتهـي بـرأس أفعـى، معروفـة باسـم أسـورة الحيـة. فـي البدايـة خفـت، ثـم نظـرت حولـي، لـم أجـد أي إنسـان. كانـت مشـاعري مرتبكـة بيـن الفـرح والخـوف.

لا أعرف لماذا كنت خائفًا، لأنني أسمع أن سعر الذهب مرتفع جدًا، وأن هذه الأسورة الكبيرة لا بد أن يكون ثمنها مبلغًا كبيرًا من المال لم أحصل عليه طوال حياتي. حملت الحطب على ظهري وعدت مسرعًا إلى المنزل، وطوال الطريق بدّلت مكان الأسورة في جيبي أكثر من مرة؛ فمرة أضعها في جيبي اليمين، ومرة أضعها في جيبي الشمال، حتى وضعتها في جورب الحذاء، ولكنه لم يحملها، فأعدتها إلى جيب البنطال.

لم يعترضني طوال حياتي أحد، لكنني في تلك العودة شعرت أن الدنيا كلها ستنقضّ عليّ لتسلبني هذا الكنز الثمين. لا أعلم كيف وصلت إلى المنزل، وهناك قلت لنفسي: يجب أن أبيعها فورًا لأشتري طعامًا لأطفالي.

غير أن المشكلة كانت في أن أقرب سوق للصاغة يقع في جباليا، ولا أملك ثمن المواصلات.

ذهبت إلى أخي وطلبت منه أن يقرضني أجرة الطريق، لكنه رفض بشدة. كنت متلهفًا للوصول إلى محل الصاغة ولمس ثمنها بيدي. وحتى أستطيع ان احصل من أخي على أجرة الطريق، وكنت أعلم أن لديه بعض النقود لأنه يعمل حلاقًا، وقد كان عند خروجي لجمع الحطب بعض الزبائن ينتظرون حلاقة شعرهم. أخرجت الأسورة ووضعتها أمام عينيه، ففتح فمه دهشة وقال: من أين جئت بها؟

قلت: وجدتها أثناء جمعي للحطب.
فضيّق عينيه وقال محذرًا: إياك أن تكون قد فعلت أمرًا مشبوهًا.
فأقسمت له أنني وجدتها صدفة بين أوراق الشجر، وربما تطايرت من منزل قُصف، أو سقطت من يد عروس تحولت إلى أشلاء أثناء عودتها إلى بيتها. لا أعلم كيف وصلت إلى الأحراش، أنا فقط وجدتها، ولم يكن هناك أحد في المكان.

قال: حسنًا، سأعطيك عشرين شيكلًا لتذهب وتعود.
أخذت المال، وعند خروجي من صالون الحلاقة صادفت أخي الأصغر، فاصطحبته معي. وقلت في نفسي: سندفع العشرين شيكلًا أجرة شخصين للذهاب، وعند عودتنا نكون قد بعنا الأسورة وسددنا المبلغ من ثمنها.

وصلنا إلى سوق الصاغة، فقلت لأخي: خذ الأسورة وادخل إلى ذلك المحل، واستمع فقط إلى السعر الذي سيعرضه عليك، ثم عد إليّ لنقارن ونبحث عن الأفضل.

دخل أخي، ووقفت أنا على مقربة من الباب. وما إن عرض الأسورة حتى صرخ الصائغ فيه: اخرج، انصرف من هنا! أما سئمتم؟ كل يوم يأتي شخص مختلف بأسورة من هذا النحاس!

عاد أخي خائفًا وقال إن الصائغ يؤكد أنها نحاس. قلت له: هذا مستحيل، هذا الرجل لا يفهم في الذهب، دعنا نذهب إلى غيره.

توجهنا إلى صائغ آخر قريب، وعرضنا عليه الأسورة وسألناه عن قيمتها. فقال: أنا لا أشتري النحاس، هذا ذهب صيني مقلّد، وهذه الأسورة يأتي بها الناس كل يوم أو يومين. الله يسهل عليكم.

وقفت أفكر كيف سنعود إلى المنزل ونحن الآن لا نملك أجرة المواصلات. سألته إن كان يشتريها بأي ثمن، فأجاب: لا تساوي شيكلًا واحدًا.

عدنا إلى المنزل سيرًا على الأقدام، محبطين، وبعد أكثر من ساعة وصلنا. جلسنا نسترجع أحلامنا البسيطة التي رسمناها لو أننا بعنا تلك الأسورة."

صمت إيهاب، وصمت الجميع. لم نعد نعرف هل نضحك أم نحزن. وبما أن المفترض أن تكون الجلسة للضحك، سألته: ماذا قال الصائغ الأول لأخيك؟

فقال: صرخ فيه وقال: اخرج وانصرف.
فضحك الجميع، وبدأت التعليقات الساخرة. قال أحدهم: يبدو أنها أسورة مشهورة، فكل من يذهب إلى الأحراش يجدها.

وسأله آخر: ماذا فعلت بها يا إيهاب؟
ضحك وقال: في اليوم التالي، حين عدت لجمع الحطب، أخرجتها غاضبًا وقذفتها

بعيدًا في الأحراش.

فضحك الجميع وقالوا: ستعود مع شخص آخر إلى صائغ الذهب.
ثم قال محمود: لديّ قصة كنتُ سعيدًا خلالها.

فقلت لهم: اصمتوا جميعًا، دعونا نستمع إلى محمود وهو يحكي كيف كان سعيدًا.
فمحمود ينطبق عليه بيت الشعر القائل:

إن حظي كدقيقٍ فوق شوكٍ نثروه ثم قالوا لحُفاةٍ عند ريحٍ اجمعوه
صعب الأمر عليهم ثم قالوا إن من أشقاه ربي كيف أنتم تُسعدوه

ثم قلت له مازحًا: حدّثنا أيها الشقي، فضحك الجميع.

قال محمود:
"هذه القصة حدثت معي في الأشهر الأولى من الحرب. كان الجميع يستلم "الكابونات"، ولم يبقَ أحدٌ إلا ونال حصته، إلا أنا، رغم أنني عاطل عن العمل ولديّ أطفال. وكنت أقول في نفسي دائمًا: لعلّ في الأمر خيرًا، اصبر يا رجل.

وفي أحد الأيام، كنت جالسًا أتصفح فيسبوك وتيك توك، فإذا بصوت رسالة تقتحم هاتفي، وأنا نادرًا ما تصلني رسائل. فتحتها على عجل، وقرأت أول كلمة: "توجّه."

ولمن لا يعلم، فإن كلمة السر في غزة هي "توجّه"، فجميع مؤسسات الدعم حين ترسل رسائل للمواطنين تبدأها بهذه الكلمة، مثل: توجّه إلى منزل المختار فلان، أو توجّه إلى بركس كذا في منطقة كذا.

توجّهت جريًا إلى العنوان، وطوال الطريق كنت أتخيل شكل الكابونة ونوعيتها؛ فالكابونات أنواع: منها ما تبلغ قيمته 500 دولار، ومنها ما لا يتجاوز 10 دولارات. وفي النهاية وصلت، فوجدت طابورًا طويلًا. وقفت فيه، وعلمت أن الكابونة عبارة عن سبع علب من المكمل الغذائي، وكان ثمن العلبة آنذاك دولارين، أي أن قيمة الكابونة 14دولارًا.

قلت في نفسي: لو ذهبت مواصلات ذهابًا وإيابًا لدفعتُ ما يعادل ثمنها. لكنني قلت: لا بأس، سأنتظر.

في النهاية استلمت المكمل الغذائي، وعدت إلى المنزل قابضًا على العلب السبع في يدي.

وبمجرد دخولي، سألتني زوجتي:
– لماذا لم تستلم الكابونة؟

فمددت يدي وقلت:
– ها هي الكابونة.

قالت بدهشة:
– مكمل أطفال؟ لم أرَ كابونة كهذه في حياتي! ما هذا الحظ يا رب!

أعطيتُ ابنيّ كلّ واحدٍ علبة. وما إن فتح أحدهما العلبة وقضم قطعة، حتى رنّ هاتفي. أجبت، فقيل لي إن منزلنا قد قُصف، وإن شقتي دُمّرت بالكامل.
أغلقت الهاتف، وعدت أنظر إلى ابني وهو يأكل قطعة المكمل الغذائي.

قالت لي زوجتي وقد لاحظت تغيّر وجهي:
– ماذا حدث؟ من كان المتصل؟

قلت لها:
– لا شيء... يبدو أن إقامتنا في دير البلح ستطول قليلًا.

قالت بإلحاح:
– بالله عليك، ألم يقل لك إن دارنا قُصفت؟
هززت رأسي موافقًا، وجلست تبكي بحرقة."

ثم نظر إلينا محمود وقال:
"كانت تلك أكثر لحظة شعرتُ فيها بالسعادة طوال الحرب. لا أعلم لماذا، لكن انتابني إحساس غريب بأنني دفعت منزلي ثمنًا لتلك العلب. لعنة المكمل، ولعنة اليوم الذي وُلدت فيه، ولعنة الأقدار التي ساقَت هذه الحرب التي لا نهاية لها. ومن فقد بيته، يا أصدقائي، فالحرب بالنسبة له لم تنتهِ؛ لأن المنزل هو الوطن الصغير، فكيف أعيش في الوطن الكبير وأنا لا أجد فيه موطئ قدم، ولا سقفًا أشعر تحته بالأمان لي ولأسرتي؟ منذ ذلك اليوم تنقلت عشرات المرات بين الخيام، وفي مناطق مختلفة من غزة، شمالها وجنوبها. أتعلمون؟ هذه هي المرة الأولى منذ أكثر من عامين أجلس فيها كإنسان طبيعي، مع أصدقاء طبيعيين، نتحدث ونستمع."

ثم صمت محمود، وصمت الجميع.
كسرتُ الصمت محاولًا إعادة جو البهجة، حتى لا يطغى الحزن على الجلسة التي لجأنا إليها هربًا منه، فقلت:
"والله يا محمود، منذ أن رفعت إصبعك وقلت: كنت سعيدًا، وأنا قلبي يرتجف. استغربت، فأنا أعرف حظك العاثر منذ وُلدت!"
فضحك الجميع، وضحك محمود، وعاد الضحك كما كان.

فقالت لينا: "أنا سأخبركم بأكثر لحظة شعرت فيها بالسعادة، وهي حينما اشتدَّ الاحتلال في حصاره علينا بالشمال، ولم يستطع أحد منا حتى فتح باب المنزل. ولم يكن وقتها في المنزل أي شيء يُؤكَل، كنا نزحف على بطوننا من شدة الجوع، أكلنا حتى أوراق الشجر.

وفي أحد الأيام، كنت أجلس على سرير في وسط المنزل أقرأ رواية، فغفوت قليلًا، وسقطت الرواية من يدي خلف السرير. فنزلت تحت السرير لألتقطها، فنظرت فإذا بأكبر مفاجأة في الدنيا: برتقالة مُلقاة أسفل السرير. نظرت حولي فلم أجد أحدًا، فالتقطت البرتقالة التي كان نصفها مكسوًا بالعفن الأبيض ونصفها الآخر سليم، قد تكون مُلقاة أسفل السرير منذ أسابيع أو شهور، كأنها كانت تنتظرني لتَهَبَني حياة جديدة.

لا أعلم كيف، لكنني ذهبت مُسرعة إلى دورة المياه وأغلقت الباب على نفسي، وجلست على المقعد وقشرتها، وبدأت ألتهمها بتلذذ. وكان طعم البرتقالة يُؤثر فيَّ مباشرة كألذ طعم أكلته في حياتي، ولا أعتقد بأنني سأتذوق أطيب منه في حياتي. بقيت أختار القطع الخالية من العفن قطعة وراء قطعة حتى تلاشت كل البرتقالة من بين يدي. لم يتبقَّ منها سوى القشر الذي بدأت آكل اللب الذي بداخله، وأحيانًا آكل القشر نفسه.

لملمتُ ما تبقى من عفن البرتقالة وأسقطته من شباك الحمام الصغير المؤدي للشارع حتى أخفي آثار الجريمة. غسلت يدي وعُدتُ، نزلت تحت السرير والتقطت الكتاب، وسرحت قليلًا في نفسي التي أنَّبَتْني كثيرًا على فعلتي هذه. كيف استطعت أن ألتهم البرتقالة لوحدي وأخوتي الصغار يتلوون جوعًا بالداخل، وأمي وأبي؟ كان يجب أن أوزعها على الجميع. يا له من عار! كم شعرت وقتها بالاحتقار لنفسي، ولن أسامحها طوال العمر على فعلتي هذه.

ولكن في نفس الوقت، أدركت كم هي غالية قيمة الحياة والبقاء. لو كان أحدهم قد طرح عليّ هذا السؤال وقال لي: "لو كنت في مجاعة ووجدت برتقالة، ماذا كنت ستفعلين؟ هل كنت ستأكلينها لوحدك أم مع العائلة؟" كنت سأجيبه فورًا وبلا تردد: مع العائلة. الواقع يختلف؛ يبدو أن هناك فرقًا شاسعًا بين النظرية والتطبيق، تمامًا كما لو سقطت عائلة من المركب في عرض البحر، فكل شخص سيحاول إنقاذ نفسه.

بدت الأشياء متداخلة في رأسي: هل أنا شخص لئيم أم أن إرادة الحياة أقوى؟ ولكن لحظة التهامي تلك البرتقالة لن أنساها طوال العمر، كانت أكثر لحظة سعادة شعرت بها وتغلغلت في كل أوصالي.

هذه كانت أكثر مرة والمرة الوحيدة التي شعرت بها طوال الحرب بالسعادة.

في نهاية تلك الجلسة، لم نكن قد عثرنا على تعريف واضح للسعادة، ولم نخرج بخلاصة فلسفية تليق بكل ما قيل، لكننا أدركنا شيئًا واحدًا بوضوح جارح: السعادة في الحرب لا تشبه نفسها خارجها، ولا تأتي كاملة ولا نظيفة ولا مرفوعة الرأس. هي لحظة خاطفة، مسروقة، أحيانًا مخجلة، وأحيانًا موجعة، لكنها حقيقية بما يكفي لِتُبقي الإنسان واقفًا. تعلمنا أن الضحك ليس دليل خفة، بل أحيانًا آخر أشكال المقاومة، وأن السخرية ليست استهزاءً بالحياة بل تشبثًا أعمى بها. في غزة، لا نضحك لأننا بخير، بل لأن البديل هو الانهيار، ولأن القلب إن لم يجد منفذًا للهواء اختنق.

خرجنا من تلك السهرة ونحن نحمل قصصنا معنا كما نحمل جراحنا، دون أن نشفى منها، لكننا على الأقل لم نعد وحدنا. أدركنا أن كل واحد فينا يملك "برتقالته" الخاصة، أو "أسورته" الكاذبة، أو "دفئه" العابر في شاحنة باردة، وأن هذه التفاصيل الصغيرة، مهما بدت تافهة أو قاسية، هي ما صنع بقاءنا حتى الآن. لم تنتهِ

الحرب حقًّا، حتى وإن صمتت البنادق، لأنها تسكن في الذاكرة، وفي الفقد، وفي الخوف من الغد، لكننا في تلك الليلة كسرنا شيئًا من سطوتها. جلسنا كأناس عاديين، تحدثنا، ضحكنا، صمتنا، وبكينا دون أن نخجل. وربما كانت تلك هي السعادة بأبسط تعريفاتها: أن تشعر بأنك ما زلت إنسانًا، قادرًا على الإحساس، وعلى التذكر، وعلى الحديث. قد لا نملك بيوتًا، ولا أمانًا، ولا مستقبلًا واضحًا، لكننا نملك القصص، والقصص حين تُروى تُخفف ثقل الحياة قليلًا. في تلك اللحظة فهمنا أن السعادة ليست نقيض الألم، بل رفيقته المؤقتة، وأننا سنظل نبحث عنها، لا لأنها تنقذنا بالكامل، بل لأنها تمنحنا سببًا واحدًا إضافيًا لنكمل يومًا آخر.

# بيوت

تحمل البيوت وجوهًا كثيرة؛ نصادف كل يوم العديد منها. هي مثل البشر: بعضها مجرد معرفة عابرة، وبعضها أصدقاء وأقارب وجيران. لكن هناك نوعية خاصة من الناس، قد لا تلتقيهم كثيرًا، ربما صدفة أو من خلال العمل، ومع ذلك تشعر بأنهم قريبون منك جدًا، يبادلونك الاحترام والمودة، وكأنك تعرفهم منذ زمن.

تلتقيهم مرة كل عام، ومع ذلك، حين تبدأ بالحديث معهم، تشعر وكأنك لم تغب عنهم لحظة، وكأنكم كنتم ساهرين معًا الليلة الماضية. يبوحون لك بما في قلوبهم، وأنت تشعر أنهم إخوتك وأصدقاؤك الوحيدون.

هذا صديقي طيب القلب، أبو قصي، أو كما يحب الزملاء أن ينادوه في الوسط الفني: "شوكو." يعمل في مجال الدراما منذ سنوات: فني صوت، مساعد إنتاج، مساعد مخرج... كل ما يُطلب منه ينفذه ببراعة، بخبرة وتجربة عميقة في العمل الدرامي. طويل القامة، أبيض البشرة، وسيم، خفيف الظل، متزوج وأب لثلاثة أبناء: غزل وقصي وشام.

التقيت به بعد عودتنا من النزوح الأخير عقب إعلان "ترمب" انتهاء الحرب. كنت أقوم بورشة تدريبية عن الكتابة الإبداعية، ورأيته صدفة جالسًا في المكان. من النظرة الأولى، كدت ألا أعرفه؛ صار نحيفًا بشكل لافت، وجهه متغير، وكأن الحرب قد ابتلعته.

أدركت فورًا أن الحرب قد فعلت فعلها بصديقي محمد. شعرت أنه بحاجة للحديث والتفريغ النفسي، فقررت مساعدته. هذا ليس محمد الذي أعرفه، الذي لا يكف عن المزاح والمداعبة، الذي يحب الحياة بكل ما فيها. كان يحمل آمالًا وأحلامًا كثيرة ودائمًا يشاركها مع من حوله، صريح لدرجة الوقاحة أحيانًا، لكنه في الوقت ذاته يملك قلبًا نقيًا.

أتذكر موقفًا له أثناء تصويري لأحد المشاهد في أحد المسلسلات، وكان النص الذي قلته يتضمن جملة تحمل توجهًا سياسيًا محددًا. اعترض محمد فورًا عند سماعه للحوار، رغم أنه فني صوت وليس دوره الاعتراض أمام المخرج. كان اعتراضه بمثابة الضمير الحي، وأكد لي إحساسي بعدم ارتياحي لتلك الجملة. طلبت من المخرج حذف الجملة، وفهم المخرج الأمر دون تردد، وقام بحذفها أثناء المونتاج. قلت له: "يا محمد، أنا أدير ورشة للكتابة الإبداعية لمجموعة من الشباب والفتيات، ما رأيك أن تأتي لتجلس معنا؟ نريد أن نتجاذب أطراف الحديث، وأود أن أسمع أخبارك." كانت هذه حيلتي لأساعد صديقي، لأجذبه إلى الجلسة، لكي يبوح بما في قلبه ويكسر الصمت الذي يغلفه.

رفض في البداية، وقال: "لا يا عم أبا فادي، لدي عمل بعد ساعتين." جذبته من ذراعه وقلت له: "سنكون قد انتهينا بعد ساعتين، فالجلسة كلها لن تتجاوز الساعتين."

ذهبنا إلى الخيمة المجاورة، وجلسنا في شبه دائرة. رحبنا به، وبعد التعارف بدأت الورشة. طلبت من الجميع أن يخبروني عن أكثر مشهد سبب لهم السعادة خلال الحرب. تفاجأ الجميع من السؤال، إذ توقعوا أن أسأل عن أكثر ما أحزنهم. بدأوا يتحدثون، وضحكنا معًا، ضحك امتد طوال الجلسة. كان لقاؤنا الأول مليئًا بالفرح، تمنينا ألا ينتهي، واستمرت لقاءاتنا.

ولكن، عندما أتى اللقاء الرابع، في ذلك اليوم سألت الجميع عن أكثر ما أحزنهم في الحرب. تحدّثوا واحدًا تلو الآخر، إلا محمد... كانت إجابته مختلفة، وكأن حزنه لا يشبه أحزان البشر. قال بصوت مكسور، بلا ارتجاف ولا دمعة: "يا عم أبا فادي... لم يعد هناك شيء يؤلمني. لقد فقدت الإحساس. لم أعد أشعر بشيء مهما حدث؛ يبدو أن مشاعري قد تبلدت."

ثم أكمل، وكأنه يخرج من صدره حجارة راكمتها السنوات: "منذ يوم استشهاد حامد... انقسم عقلي. نصف يصدق ونصف يرفض. شعرت أنني واقف بين اليقظة والجنون، بين النوم والصراخ. لا أستطيع تصديق أن حامد قد رحل. كان أطيب شخص في حياتي... أخي الذي لم تلده أمي. سندي، وظهري، ورفيقي الذي لم يفارقني يومًا."

كان محمد يبني منزل العمر—شقة صغيرة في عمارة— واستمر في بناء شقته أربع سنوات كاملة. كلما جمع مبلغًا، وضعه في جدران البيت. وكان صديقه حامد أول من يلبي النداء للمساعدة: "تعال يا حامد... اذهب يا حامد." لم يتأفف يومًا. كان يشعر أنه يبني بيته هو، لا بيت محمد. لم يكونا شخصين... كانا شخصًا واحدًا في جسدين. حتى أبناؤه كانوا يحبّون "العم حامد" أكثر من أعمامهم الحقيقيين، وخصوصًا شام، طفلته الكبرى، فرحته الأولى؛ كانت تركض نحوه لحظة دخوله المنزل، وتتعلّق بعنقه، وهو يبحث عنها بعينيه قبل الجميع.

ثم تنهد محمد وقال: "يوم استشهاده... هذا اليوم محفور في صدري. ركضت إلى بيتهم، ولم أجد بيتًا. كانت هناك حفرة. الأرض نفسها بدت وكأنها قُصفت ألف مرة. سألت: أين حامد؟ قالوا لي: دعك من هذا السؤال. صرخت: أين أخي؟ أريد أن أراه! قالوا لي: من الأفضل ألا تراه."

وعندما أصررت، اقترب مني جارهم وهمس: "يا محمد... حامد بلا رأس، والجثة شبه ممزقة. إنهم يبحثون عن رأسه."

بقي الصوت في أذنه، كأنه يصفع قلبه كل مرة. أخذوا حامدًا وزوجته وأبناءه وأمه وأباه وابن أخيه إلى المستشفى... لكتابة شهادات وفاة جماعية. عائلة كاملة شُطبت من السجلات.

يقول محمد: "كان لحامد ولد اسمه أحمد... كنت متعلقًا به أكثر من أولادي. أحيانًا كانوا يغارون منه، لفرط محبتي له."

ثم ارتجف صوته لأول مرة: "يا الله... حتى أحمد رحل."
استمروا بالبحث عن رأس حامد حتى وجدوه في الحارة المجاورة، قذفته الضربة عشرات الأمتار. وضعوه داخل الكفن، وأغلقوه عليه كي لا يتحرك الرأس، ولم يودّعه أحد.

يوم الدفن، لم يبق إلا جسد أحمد الصغير كما هو، بلا خدش... كأنه نائم. يقول محمد: "حملته... ضممته بقوة. قبّلته من خدّيه ومن جبينه. أحسست أن قلبي توقف. كأنني أحتضن حامدًا نفسه. ظللت ممسكًا به إلى أن سحبوه من بين يديّ وهم يقولون: رحمه الله. دفنّاه... ودفنت قلبي معه. حتى اليوم قلبي هناك، يلعب مع أحمد ويحرس قبر حامد."

عاد محمد إلى البيت إنسانًا آخر هو نفسه لا يعرفه. استقبلته زوجته بوجه شاحب تطلب منه أن يغادروا فورًا: "نريد أن ننزح إلى الجنوب... أرواح أولادنا ليست لعبة." هزّ رأسه، بلا كلمة.

هكذا اتخذ قرارًا أكبر من طاقته... ترك حلم العمر. ترك البيت الذي بناه حجرًا فوق حجر. يقول: "منذ ذلك اليوم صار كل شيء بلا معنى. لم يعد هناك غضب، ولا حزن، ولا حتى وجع. يجب أن أحمي عائلتي فقط. الموت يحيط بنا من كل جهة، وخاصة في منطقتي—الثوام شمال غزة—كل ليلة تنهار البيوت، ويذهب العشرات."

لم يأخذوا إلا بعض الملابس. كان محمد آخر من غادر البيت. وقف عند الباب لحظة طويلة، نظرة لم تكن حنّانة ولا مشتاقة... كانت أشبه بوقفة شخص يحاول

أن يشعر بشيء ولا يجده. آخر ما وقعت عليه عيناه... غرفة النوم؛ المكان الذي كان يفترض أن يحمل معنى، ولم يعد يحمل شيئًا. ثم أغلق الباب بهدوء يشبه الاستسلام.

بدأت الرحلة إلى النصيرات، إلى منزل أحد أقاربي الذي استقبلنا بودّ ناعم وسط عاصفة لا ترحم. لحظتها بدونا وكأننا في ملاذ، رغم أن داخلي لم يعد يعرف طعم الملاذ. ظللنا هناك حتى جاء اتصال الجيش الإسرائيلي يأمرهم بإخلاء البيت فورًا قبل القصف. خرجنا مسرعين، كلٌّ يتفقد أولاده بعينين مذعورتين... إلا أنا. لم أكن مذعورًا، ولم تتحرك بداخلي أي رجفة. كنت أراقبهم كمن يؤدي مهمة عليه إنجازها. لم نأخذ سوى حقيبة الوثائق: شهادات الميلاد، البطاقات، عقد المنزل، وبعض ملابس الأولاد. بالنسبة لي، لم يعد شيء مهمًا في الحياة سوى أن أقوم بما عليّ فعله كأب. أما القيمة... أما المعنى... فقد تبخرا منذ زمن.

خرجت بلا خوف. بلا ارتجاف. بلا تلك اللهفة الطبيعية التي يفترض أن تشتعل في صدر أب ينقذ عائلته. ناديتهم ببرود: "هيا لنغادر." قلتها كأنني أردد جملة محفوظة، لا كأنني أهرب من موت. تبعتنا زوجتي، ووقفنا بعيدًا عن المنزل. دقائق قليلة... صوت الصاروخ يمزق الهواء، غبار كثيف يبتلع المكان، واندثر البيت. اختفى كأنه لم يوجد يومًا.

كنتُ واقفًا هناك، أراقب الركام، لا مندهشًا ولا منكسرًا—فقط فارغًا. أول ملاذ أسكنه، وأول شيء ينهار أمام عيني... ولم أشعر إلا بأن مرحلة انتهت، وأن عليّ أن أتابع المرحلة التالية كما يتابع المرء وظيفة متعبة لا خيار له فيها. لجأنا إلى مؤسسة منحتنا خيمة، ثم انتقلنا إلى مخيم نزوح يزدحم بالخيام المتلاصقة؛ مساحة ضيقة من القماش لا تشبه بيتًا ولا حتى مأوى، مجرد وهم رقيق يفصل بينك وبين العالم المفترس. هناك شخص مسؤول يوزّع الماء والطعام... فقط كي لا نموت.

الحياة داخل الخيمة لم تكن حياة، كانت الخيمة جحيمًا مقيمًا، نسخة أرضية من مكان لا يخرج منه أحد كما دخل. قطعة قماش ميتة، تلتف حولك ككفن، لا تمنح سترًا ولا دفئًا ولا حماية. كل شيء فيها يذكّرك بأنك لست حيًا تمامًا... ولست ميتًا بما يكفي.

الخيمة في النهار كفرن مفتوح، وفي الليل تتحوّل إلى بطن مظلم لشيطان يتنفس حولك. الهواء ثقيل، رائحته خليط من الرطوبة والخوف، والظلام يزداد سوادًا كلما لامس أطراف القماش المهترئ. تشعر أنك في مكان لا سقف له ولا جدران... فقط فراغ يضغط على صدرك وكأنك معلق في هاوية لا قرار لها.

كانت الكلاب تحوم حول الخيمة كما لو أنها حرّاس هذا الجحيم، تتحرك في دوائر، تقترب حتى يكاد نباحها يخترق أجسادنا. الطائرات فوقك، والجرذان تحتك، وطائرات الاستطلاع (الزنانات) تحوم حول رأسك كأصوات تعذيب متواصل. حتى الريح حين تهب، تهزّ الخيمة بطريقة تجعلك تشعر أن الجحيم نفسه يتنفس في أذنك.

محمد كان يرى كل ذلك بلا رفة خوف. يقف وسط هذا الجحيم كمن اعتاد النار ولم يعد يُميِّز لسعتها. ينظر إلى أولاده الثلاثة المرتجفين تحت الغطاء... أطفال مساكين يظنون أن قطعة القماش يمكن أن تحميهم. كانوا يرسمون على وجوههم ملامح الرعب الصافي، ذلك الرعب الذي لا يحتاج إلى تعليم أو إعداد.

وللحظة، لحظة لا يفهمها إلا من احترق من الداخل، ابتسم محمد. ابتسامة قصيرة، باهتة، مرّت على وجهه كالظل. تذكّر مواقع التصوير، تذكّر صراخ المخرج وهو يطلب من الممثلين أن "يُبالغوا في الخوف"، أن "يفتحوا عيونهم أكثر"، أن "يرتجف صوتهم بطريقة مقنعة." ضحك بصمت داخلي مُرّ... لأن الخوف الذي يسكن وجوه أولاده لم يره في أي ممثل. حتى أعظمهم لا يستطيع أن يقلّد هذا النوع من الذعر... الذعر الحقيقي، الخام، الذي يخرج من قلب طفل محاصر في جحيم لا يفهمه.

أما هو، فكان يتحرك بينهم كجسد يؤدي ما يجب... لا أكثر. كأب يعرف أن عليه أن يحميهم، لكنه لا يشعر بالحماية، ولا بالأبوة، ولا بأي شيء. فقط واجب... يتحرك في داخله بآلية جافة.

الخيمة كانت الجحيم. ومحمد كان يعيش فيها بلا خوف... ليس شجاعة، بل لأن شيئًا فيه قد مات قبل أن يصل إليها.

بقينا ننتظر اليوم الذي نعود فيه إلى منزلنا، حتى لو لم تتوقف الحرب. صار حلم العودة هو الشيء الوحيد الذي يطفو فوق هذا المستنقع من الجحيم. صار الحديث عنه أملًا نتمسك به كي لا نغرق، وصارت حياتنا كلها محصورة في سؤال واحد: متى تبدأ الهدنة؟

لكن الأخبار لم تُطمئننا. قُصف العديد من المنازل في منطقتنا. لم نستطع الاطمئنان على شقتنا سوى عبر الانتظار ومتابعة الأخبار، أو عبر التواصل مع من بقي منهم. بعد أيام، عاد الجيش إلى الخلف، تاركًا وراءه خرابًا ودمارًا. اتصلت بجارنا الذي بقي في البيت وطلبت منه صورًا لشقتنا، لنطمئن عليها. عندما وصلتني الصور، كانت العمارة وشقتنا سالمة، لم تمسَّها إلا بعض الإصابات الطفيفة. فرحتنا لم توصف.

كانت شقتنا حلمًا صُمم بعناية، كل تفصيلة فيها اختارها حامد وأنا معًا. ما زلت أتذكر آخر شراء لنا: أسرّة وخزانات لكل طفل، يوم فرحهم كان يومًا من السعادة الخالصة، يقفزون على أسِرَّتهم كما لو كانت "ترامبولين."

وعندما عدنا إلى بيوتنا، كان يومًا لم أشهد له مثيل. أكثر من مليون شخص يتحركون شمالًا، نساء وأطفال وشيوخ وشباب، حتى الحيوانات، كلها تزاحم بعضها لتعود إلى بيوتها. كنت أرفع جهاز "بوم" الصوت عاليًا لكي ألتقي بزوج

أختي. رفعتُ الـ "بوم" كساريةٍ في قلب الحرب. لا أعرف ما الذي دفعني يومها لأن أشغّل لاقط الصوت وأسترق السمع لما حولي. أول ما التقطه كان صوت رجل يقول لصاحبه: "اسمع... إذا تهنا عن بعضنا، نلتقي عند أبي طويلة... هذا الذي يرفع المكنسة!" ضحكتُ رغم كل شيء. وسط الخراب، ما زال الناس يجدون مساحة للتفكُّه.

آخرُ كان يواسي جماعته: "تحمّلوا... الطريق طويلة، ولكن أول ما نصل إلى ديارنا... نرتاح."

وكلما اقتربنا إلى غزة، ازدادت الجملة التي تتردّد بين الناس: "يا عمي... هواء غزة لا مثيل له... إنه يعيد الروح."

كان البعض حين يُنهكهم الطريق يجلسون في مواجهة البحر، يملؤون صدورهم من هوائه، وكأنه دواء يعيد إليهم ما سرقته الحرب. وأحيانًا كان يقترب مني أحدهم يرجوني ألا أُنزل الـ "بوم"، لأنه أخبر أخاه أن يتبعه كعلامة ليلتقي به وسط هذا الطوفان البشري. صرتُ علامةً متحرّكة، نقطة تجمُّع للناس، أول علامة تتحرّك على قدمين في التاريخ.

طوال الطريق كانت السماعات في أذني، كنت أستمع لأحلامهم، لشوقهم، لعباراتهم المرتجفة من التعب والانتصار معًا، وسجّلتُ كل كلمة.

وعندما وصلنا إلى بيوتنا... ذلك اليوم لن يتكرر.
... حتى الأحصنة والحمير، بل وحتى القردة والعصافير، كلها تتدافع في المسار ذاته، كما لو أن الحياة بكل أشكالها تريد أن تعود إلى مكانها الأول.

رفعت البوم عاليًا بين هذا المدى، كلما أضعت أحدًا أو أضاعني أحد. أصغيت

لأصوات الناس، كانت تتداخل في أذني: ضحكٌ يختلط بالبكاء، تنهّدات تعب، أمنيات، أسماء ينادي بها أصحابها خوفًا من أن تضيع وسط الزحام.

كان الهواء... هواء غزة... يملأ صدور الجميع. ومن شدّة الشوق، كنت أرى من يرفع رأسه للسماء وكأنه يشرب النفَس شربًا. في تلك اللحظات... شعرت أن التسجيل الذي أحمله ليس صوتًا فقط، بل ذاكرة شعب كامل يعود من الموت إلى البيت. ظلّ هذا التسجيل الصوتي معي، شاهدًا على فرحة العودة، على صبرنا، على الحب الذي لا ينكسر، رغم كل ما مررنا به.

وصلنا شقتنا منهكين، كأن الطريق حلبة صراع لا نهاية لها. وضعت المفتاح في القفل، دار ببطء، وفتح الباب... لم ندخل بيتًا، دخلنا جنة مُغْبَرَّة. كل شيء مغطى بطبقات سوداء من السخام، أثر القصف والدخان. الغبار يملأ المكان كما لو أن الزمن نفسه توقف عند هذه العتبة. الأرضية، الجدران، حتى الأسقف، مغطاة بطبقة كثيفة من الرماد، تذكرك بكل ما فقدناه، بكل لحظة تهدم فيها شيء من حياتنا قبل أن نعود إليها. لم نجد شبرًا واحدًا نجلس عليه، وكل زاوية تحمل أثر الدمار، وكل نافذة تحكي صمتًا طويلًا، صمت الركام وصمت الحياة التي توقفت مؤقتًا.

بهدوء، كأنني أخشى إيقاظ الحزن النائم على الأثاث، أمسكت قطعة قماش ومسحت الكراسي قليلًا، حتى لا يتطاير الغبار ويقتل الصمت الذي يكتنز المكان. لمست الطاولة، شعرت بنتوءات الخشب المتصدع، رائحة الدخان الأسود مختلطة بالغبار الذي دخل في كل شيء. كل شيء محطم، لكن كل شيء ما زال يصر على أن يكون بيتنا. نظرت إلى الستائر المتشابكة، إلى آثار القصف على الجدران، إلى البلاط المتصدع، إلى كل زاوية تحمل ذكرياتنا الممزقة. جلست على أحد الكراسي المائلة، أغمضت عيني لحظة، أتنفس، أحاول أن أستعيد شيئًا من الروح في المكان.

جلسنا بلا كلام، بلا طعام، بلا حركة، مجرد وجود نحاول فيه لمس الحياة من جديد. زوجتي سألتني: "ماذا نفعل بكل هذا الغبار؟" ابتسمت لها، قلت بصوت هادئ: "نلتقط أنفاسنا... وبعد ذلك ننظف أَسِرَّة الأولاد، وينامون عليها." كل كلمة خرجت مني كأنها تعويذة على المكان، محاولة لمنح البيت روحًا جديدة، رغم الخراب من كل جانب.

تنقلنا بين الغرف، نزيل الغبار، نحاول أن نجد شيئًا يمكن أن يجعل المكان مألوفًا. كل شيء محطم، لكن الأصوات التي نُحْدِثها نحن، ضحكاتنا المكتومة، حركاتنا البطيئة، تخلق حياة صغيرة بين الركام. نرفع قطعة قماش عن الطاولة، نعدل الكرسي، نمسح الأرضية برفق، كأننا نعيد ترتيب كل لحظة من حياتنا.

لا أعرف كيف نمنا تلك الليلة، وسط الغبار الذي غطى وجوهنا وأجسادنا، لكنّها كانت أسعد ليلة عشناها منذ لحظة خروجنا من البيت. لأول مرة منذ عامين، شعرنا بالأمان. بلا نباح كلاب، بلا صوت طائرة استطلاع، بلا ارتجاف. البيت، المغبر والمكسور، عاد إلينا، يضمنا بحضنه الصامت بعد طول غياب، يحمل كل ما تبقى من حياتنا وذكرياتنا، ويصبر معنا على ما تبقى من غد.

لكن مثل كل شيء جميل... انتهت الهدنة. وعادت الحرب أشد قسوة: جوعًا وحرمانًا وانعدامًا للطعام—وخاصة الدقيق. ثم عاد الجيش مجددًا يطلب منا مغادرة غزة نحو الجنوب، مهددًا بتدمير المدينة بالكامل. وبدأ فعلًا بمحاولة ذلك. غادر الناس كالسيل، كل شخص يريد النجاة بعائلته. اتفقت مع شاحنة أن تقلنا إلى الجنوب، وعدنا إلى نفس الخيمة... نفس العذاب... نفس اليوم الذي يعيد نفسه بلا رحمة. كل يوم كنا نحاول الاطمئنان على منزلنا. الأصدقاء يقولون العمارة بخير، لكن الأخبار كانت تقطع القلب: التوام، الجلاء، الأمن العام، الكرامة... كلها مناطق محيطة بعمارتنا، وكلها دُمرت. وحين انسحب الجيش قليلًا، توسلت لأحد أقاربي أن يذهب ليرى المنزل. ذهب، وشاهد المكان ثم اتصل بي وأخبرني أن بعض

الجدران محطمة، العمارة متضررة جدًا، لكن شقتنا لا تزال صالحة للسكن. أرسل لي بعض الصور للعمارة والشقة... قلت في نفسي: "طالما السقف موجود... سنُرجعها أحسن من الأول."

لم نكمل الشهر، حتى أعلن ترمب توقف الحرب وعودة الناس إلى بيوتها. لم نصدق، لكننا تشبثنا بالأمل. قبل العودة، ونظرًا لندرة كل شيء، وجدت في النصيرات ثلاثة أوعية (جرادل) دهان، اشتريتها لأدهن الشقة بعد تنظيفها. ركبنا الشاحنة: أنا، وزوجتي، وأولادي، وعفشنا البسيط.

لكن حين دخلنا غزة... وتحديدًا عند تل الهوا... لم أتخيل حجم الدمار. الشاحنة تكاد تشق طريقها بصعوبة بين الركام. مررنا بشارع النصر، بالمنطقة الإيطالية... دمار هائل لدرجة أن العين لا تستوعب. ورغم كل الركام والفوضى، كانت زوجتي تتحدث بلا توقف عما تريد إصلاحه في البيت. الحنفية التي تسرب، ألوان الدهان التي اختارتها ثم غيرت رأيها عشرات المرات طوال الطريق، كل تفصيل صغير أصبح حديثها مع الأطفال. كانوا يضحكون معًا، وضحكاتهم تتدفق بلا توقف، عفوية، نقيّة... ضحكات لم أرها منذ عامين.

أما أنا، فكنت أراقبهم بصمت. أرى الفرح على وجوههم، أستمع للضحك الذي يملأ الشاحنة، وأشعر بأن شيئًا بداخلي يذوب للحظة. رغم الخراب حولنا، رغم الركام والصمت الذي يلتهم كل شيء، كانت تلك الضحكات تخلق في داخلي مساحة صغيرة من الحياة. مساحة قصيرة، لكنها كانت حقيقية، رغم كل ما مررنا به.

وعندما وصلنا منطقتنا، لم أتعرف عليها. حاولت إقناع نفسي أننا تِهنا، ولكن حين دققت النظر... رأيت بقايا الستائر التي كانت معلّقة على جدران شقتي، وقطعًا خشبية متناثرة من أَسِرَّة أولادي.

عمارتنا—التي حلمنا بها، وصممناها حجرًا حجرًا—صارت كومةً من الإسمنت.

وقفنا أنا وزوجتي صامتين، مخدوعين، نشاهد بحرًا من الركام أمام أعيننا، كأن غزة تحوّلت إلى صحراء، ليست برمال صفراء، بل برماد رمادي يملأ المكان. لم أقترب من البيت، لم ألمس أي شيء، لم أتحسس شيئًا، فقط وقفت هناك مذهولًا، عاجزًا عن الحركة، عاجزًا عن الكلام، وكأن كل شيء توقف حولي، وكأن الزمن انكسر فوق الركام.

سألني صاحب الشاحنة: "ماذا نفعل؟"
أجبته بصوت هادئ، كمن يقول أمرًا لا يملكه: "إلى بيت أبي إسكندر... بيت العائلة. نعيش في الغرفة التي في الطابق العلوي... إلى أن... إلى أن يأخذنا الله ونرتاح."

أدار الشاحنة بين الركام، وتعثرت العجلات على الحجارة المتناثرة وحوض الاستحمام (البانيو) المكسور، وصعد بنا الطريق بين المباني المهدمة، حتى وصلنا إلى بيت العائلة الذي بقي واقفًا بالصدفة، محاطًا بأهرام من الركام، كأن المدينة كلها تحولت إلى مقبرة من الحجارة والرماد. صعدنا إلى السطح، جلسنا هناك، نراقب الأفق، وكل زاوية من المدينة تحكي قصص الخراب والغياب. الشوارع خالية، المنازل المحطمة تكاد تلامس بعضها من كثرة الانهيارات، والسماء ممتدة فوقنا رمادية، ثقيلة برائحة الدخان والغبار.

جلست هناك، أنظر إلى كل شيء، وأدرك أن نقطة البداية التي عدنا إليها ليست كما كنا نحلم؛ هي تحت الصفر، أرضٌ مليئة بالذكريات الممزقة والخراب. كل شيء مفقود، وكل شيء محطم، لكنه ما زال يحمل صدى وجودنا. تذكرت حياتي قبل كل هذا، كنت في الثانية والعشرين عندما بدأت أؤسس البيت، أرتب تفاصيل حياتي، أصنع حلمًا صغيرًا سيحتضن عائلتي. اليوم، عمري أربعون، وزوجتي معي،

وأطفالي الثلاثة بين ذراعي، لكن البيت الذي عرفناه صار مجرد صورة في الذاكرة، والمدينة المحطمة حولنا هي الحقيقة الوحيدة.

ومع كل هذا، كان هناك شيء واحد بقي صامدًا: أننا بخير، وأن أولادنا ما زالوا بين أيدينا، وزوجتي، التي شاركتني كل المرارات، ما زالت معي، ثابتة، صامدة أمام الخراب، أمام الدمار، أمام الموت الذي يحيط بنا من كل جانب.

جلسنا هناك على السطح، نسند أعيننا على المدينة المدمرة، نراقب السماء الرمادية الممتدة فوقنا، ورغم كل الركام والدمار، شعرنا أن الحياة ما زالت موجودة. الركام حولنا، المدينة تصرخ بالخراب، لكن الأمل، ولو خافتًا، ينبض بيننا، يذكرنا أن الطريق مستمر، وأن واجبنا، مهما ثقلت الأيام، هو أن نعيش، وأن نحمي من نحب، وأن نعيد ترتيب ما تبقى، قطعةً قطعة، حتى لو كان كل شيء قد انهار من حولنا.